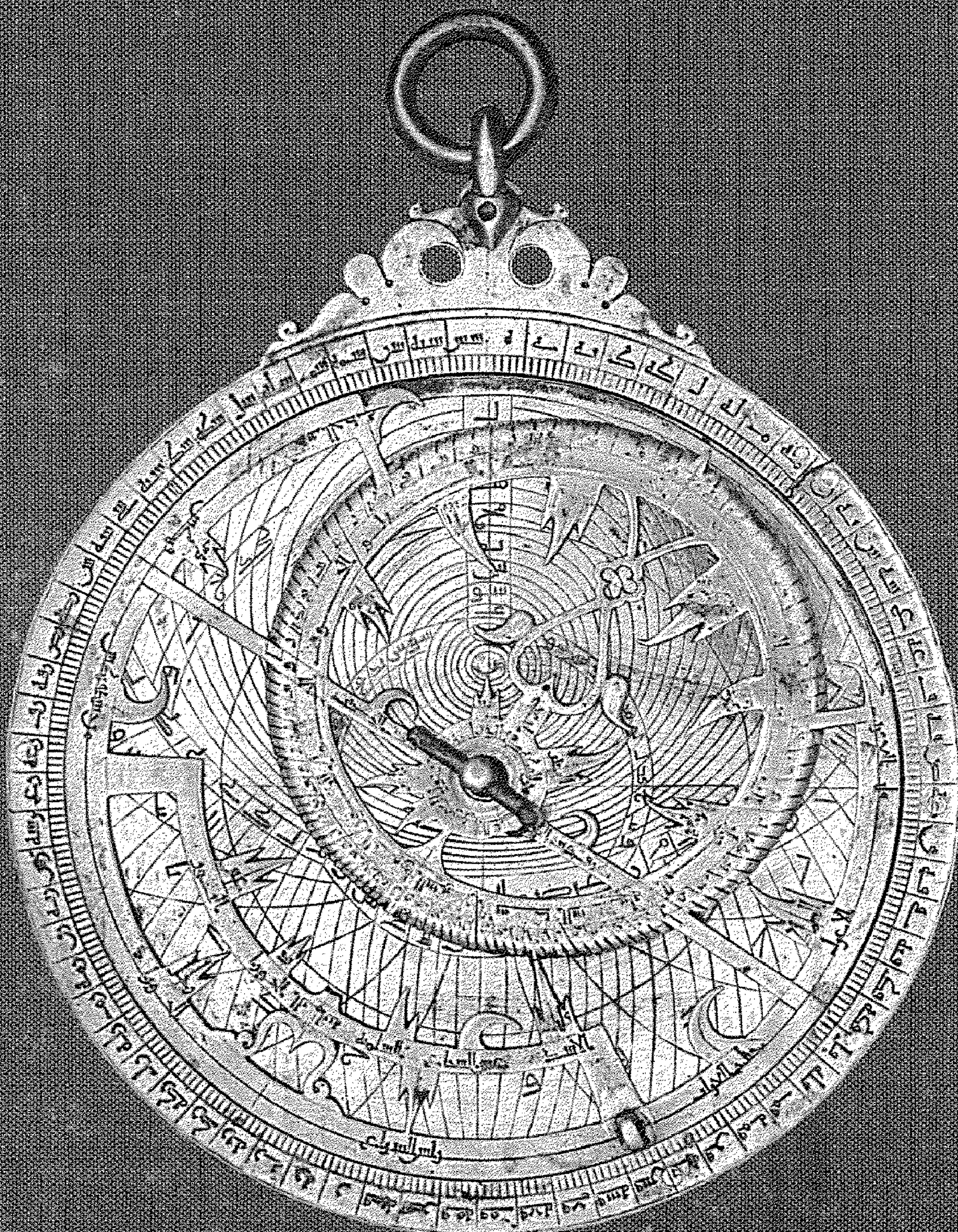
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العددان ٧١-٧٢ • أيلول (سبتمبر) - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م • الموافق ذو الحجة - محرّم ١٤٠٤-١٤٠٥هـ



□ أسد من البرونز، متحف القاهرة، الحقبة الفاطمية.

الغلاف الأول



□ إحدى اهم الآلات التي استعملها علماء الفلك في العصور الأولى. وتعود في تصميمها إلى العالم الفلكي البغدادي ابن حسين بن احمد.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



□ غلاف كتاب طبي عربي يمجد بعض العلماء اليونان.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بتاريخ العرب

العددان ٧١/٧٢ ــ أيلول ــ تشرين الأول ١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل

شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 6 — No. 71/72 — Sep./Oct. 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



تاريخ العلوم الإسلامية والعربية

د. أحمد الحجي الكردي(*)

إن البحث في تاريخ العلوم الاسلامية والعربية يتطلب منا عرضا مجملا لتطور هذه العلوم عبر القرون المتلاحقة من زمن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى يومنا هذا، وبيان مدى شمولها كما وكيفا لمختلف متطلبات الفكر والنفس والمجتمع، وعرض مشتملاتها و ميادينها وآفاقها الواسعة، ثم بيان أهم المصادر التي صنفت في هذه العلوم التي تعتبر المعين البتر

الذي أمد ولا زال يمد الانسانية بفيض من الفكر والحضارة الأصيلة التي تستطيع وحدها اليوم أن تنتقل بالانسانية إلى أعلى درجات السعادة والرقي والرفاه الحقيقي، وتنتشلها مما تتخبط فيه من فوضى ومعضلات.

فإن الثقافة والعلوم الانسانية لم تولد من أول يوم على الشكل الذي نراها عليه اليوم سعة وعمقا، ولكنها وصلت إلى ما وصلت إليه بعد تطور ونماء استغرق عصورا عديدة وأزمنة طويلة بذلت فيها طاقات فكرية كبيرة، عملت معا على إنضاجها وترعرعها واكتمالها.

□ جامع ابن طولون (القرن التاسع عشر).



(*) استاذ الفقه والأحوال الشخصية في [illegible]

□ محاضرة ألقيت في المؤتمر العالمي للعلوم الاسلامية الذي انعقد في [illegible] الثاني عام ١٩٨٣

متلاحقا غير متميز بعضه عن بعضها بفواصل زمنية محددة، فإننا سوف نلجأ إلى تقسيم اعتباري لهذه الأدوار نحاول فيه أن نجد شخصيتها ونفصلها عن بعضها بأهم الأحداث التاريخية التي تبرز فيها فتجعل لكل منها خصائص متميزة عن الأدوار الأخرى. ثم نلقي الأضواء الأولية على كل دور من هذه الأدوار، وأهم خصائص هذه العلوم وميزاتها فيه. وعلى ذلك فإننا نقسم هذه الأدوار إلى ستة:

١ ـ دور عصر النبي، صلى الله عليه وسلم.
٢ ـ دور عصر الخلفاء الراشدين.
٣ ـ دور عصر الأمويين.
٤ ـ دور عصر العباسيين.
٥ ـ دور العصور الوسيطة.
٦ ـ دور العصور الحديثة.

١ ـ الدور الأول

دور عصر النبي، صلى الله عليه وسلم.

يبدأ هذا الدور من عام (١٣) قبل الهجرة المصادف عام (٦١٠) للميلاد وهو العام الذي بعث فيه محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا، وبدأ القرآن يتنزل عليه فيه يأمره بالدعوة إلى ربه وينير أمامه السبيل إليها.

وينتهي هذا الدور بوفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم. عام (١١) هجرية، بعدما قام بإبلاغ رسالة ربه إلى بني البشر على أحسن ما يكون مصداقا لقوله سبحانه «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا[1]» فجزاه الله تعالى عن هذه الأمة خير الجزاء.

ويتميز هذا الدور بتمركز الثقافة والعلوم فيه حول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهو المحور لها ومصدر الفكر والتشريع فيها. فلا حاكم إلا هو، ولا قائد إلا هو، ولا مشرع غيره، ولا مفتي سواه. وذلك مصداقا لقوله تعالى «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»[2]. وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثقف الأمة ويربيها بالقرآن والسنة، فالقرآن وحي الله تعالى المباشر وكلامه، والسنة كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفعله وتقريره المسدد فيه من الله سبحانه، مصداقا لقوله جل من قائل: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»[3].

فالقرآن والسنة إذا هما مصدر الثقافة والعلوم في هذا العصر، ولا يوجد مصدر ثالث معهما إلا ما كان يشير به بعض الصحابة ويدونه من آراء في محضر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يطلب منهم ذلك، ثم يقرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ينهاهم عنه، كما حصل يوم بدر حيث أشار عليه الحباب بن المنذر بتغيير موضع نزوله، فوافق على ذلك. لكن هذا لا يعتبر مصدرا جديدا غير السنة، حيث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن وافق عليه كان ذلك من السنة التقريرية، أو رفضه اعتبر لاغيا ولا محل للعمل به.

وإلا ما كان يجتهد فيه الصحابة من المسائل التي تعترضهم في أسفارهم وغيبتهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يعرضونه عليه بعد عودتهم والتقائهم به، فأما أن يقره أو يرفضه فيكون مثله مثل النوع الأول يدخل في باب السنة التقريرية ولا يستقل عنها، مثال ذلك ما روى من أن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ كان في غزوة من الغزوات فأصابته جنابة وهو عائد إلى المدينة، وكان اليوم باردا فاستشار أصحابه بالتيمم بدلا من الماء، فأشار عليه بعضهم به، وأشار بعضهم بالغسل، فأخذ بمشورة الأولين فتيمم، ولما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكروا له ذلك فأقره على التيمم.



□ صورة آية من القرآن الكريم.

ثم أن القرآن الكريم شامل لكل العلاقات الانسانية التي يرتبط بها الانسان مع غيره، لكنه يعالج هذه العلاقات ويرسم لها الحلول، ويعالج المشكلات التي تتضمنها بشكل إجمالي على نمط ما تعالج به الدساتير في الدول الحديثة أمور الدولة. اللهم إلا بعض الأحكام والمسائل القليلة ذات الخطورة فإنه دقق فيها القول وفصل فيها الأحكام، كمسائل المواريث والحدود مثلا. وأما السنة، فإنها كانت بمثابة الشارح المبين لما اجمله القرآن والمؤكد لما جاء به، دون الزيادة عليه إلا في مواضع قليلة انفردت السنة عن القرآن ببيانها، وهذه الأمور هي أمور جزئية فرعية لم ير القرآن ضرورة إلى النص عليها. كميراث المدة، مثلا.

ومع ذلك فإن السنة لم تستغرق الأحكام التفصيلية كلها، بل تركت كثيرا منها للاجتهاد توسعة على الناس، ولذا فإننا نجد القرآن والسنة يهتمان بالدرجة الأولى بالقواعد الأساسية للثقافة والحكم، دون خوض في تفصيلات الأمور إلا ما كان منها يعرض على النبي — صلى الله عليه وسلم — فعلا من المسائل والمشكلات فيجيب عنه ويحكم فيه.

وبهذا يكون عصر النبي — صلى الله عليه وسلم — قد وضع الأسس والقواعد التي تختط للمسلمين طريق السير إلى الله تعالى، وتنظم أمورهم بما يصلح شأنهم ويقيم العدالة في ربوعهم، بنصوص دستورية عامة مرنة فيها محل للرأي والاجتهاد، على وجه يؤمن لكل مجتمع مصالحه.

ولكن ليس هذا معناه أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قد ترك أمر التشريع في جزئيات الأحكام للسلطات المحلية في كل عصر ومصر تتصرف فيها كيفما تشاء، (فإن هذه السلطات محكومة في الاسلام بقواعد القرآن والسنة لا تخرج عنها ولا تنحرف عن خط سيرها).

بل معناه أن القرآن والسنة أفسحا المجال للعلماء المتقين أن يبذلوا الجهد في فهم نصوص القرآن والسنة، وتطبيقها في مجتمعاتهم على حسب ما يؤديهم إليه فهمهم واجتهادهم فيها بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى مرتبة من النضج تسمح لهم بالاجتهاد. ثم هم أن أصابوا بعد ذلك فلهم أجران وأن أخطؤوا فلهم أجر واحد.

ومعلوم أن القرآن كتب على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أما السنة فإنها كانت تتناقل مشافهة على السنة الصحابة الثقاة — رضي الله عنهم — لم يكتب منها في عهده إلا شيء يسير سمح به النبي — صلى الله عليه وسلم — لبعض الصحابة كعبدالله بن عمرو بن العاص وغيره.

٢ — الدور الثاني

عصر الخلفاء الراشدين، رضي الله تعالى عنهم

يبتدىء عصر الخلفاء الراشدين بوفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — عام (١١) للهجرة، حيث تولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — وينتهي هذا العصر بوفاة علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين — رضي الله تعالى عنهم — عام (٤٠) للهجرة.

ويتميز هذا العصر بانقطاع القرآن والسنة واكتمالها بوفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — ولكن لما كانت مشاكل الناس وأمورهم العلمية والعملية متجددة وكثيرة، ونصوص القرآن والسنة محدودة، كان لا بد في هذا العصر من إيجاد مصدر ثالث بعدهما يمد العلم والفكر بحلول للمشاكل الجديدة التي لم يتعرض لها القرآن والسنة.

ولقد وجد هذا المصدر وهو الاجماع، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اعترضتهم مشكلة، أو طرقتهم حادثة، يفتشون عن حل لها في كتاب الله وسنة نبيه، فإن وجدوا لها حلا

فذاك، وإلا تنادوا إلى اجتماع يضم علماؤهم ومفكريهم، وتشاوروا في الأمر فيما بينهم ثم انتهوا إلى حل للمشكلة على وفق أحكام القرآن والسنة المشابهة لهذه الحادثة وهو ما سمي بالاجماع. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — طلب إلى علماء الصحابة أن لايغادروا المدينة المنورة في إمارته ليسهل عليه جمعهم واستشارتهم في كل جديد.

ولكن الصحابة كثيرا ما كانوا يخفقون في الاتفاق على حل واحد لبعض المسائل فيذهبون في المسألة إلى قولين أو أكثر، وعندها كانوا يتفرقون ويقضي كل منهم بما يراه أرجح من غيره وأقرب لما قضى فيه الله ورسوله، ولذلك فقد ظهر للتشريع مصدر جديد رابع غير الاجماع وهو القياس.

كل هذه الأمور كانت تحدث في عصر الراشدين، وتقترح لها الحلول ولكن دون أن يسجل منها شيء، فقد كانت أخبارها تتناقل مشافهة بين الصحابة يرويها بعضهم عن بعض مثلها مثل سنة النبي — صلى الله عليه وسلم — لم يكتب منها في عصره إلا النذر اليسير، وذلك يرجع لأمور عدة منها، قوة حافظة الصحابة، فإنهم لا يزالون بعصر الأمية التي كانت صفة مميزة للعرب قبل الاسلام، حيث كانوا يعتمدون على الحافظة بدل الكتابة. ومنها انشغالهم بالفتوحات الاسلامية ونشر الدعوة الحق في أرجاء الأرض مما لم يتيسر معه الاشتغال بتدوين ما يتحصل من الثقافة الاسلامية. ومنها صغر المجتمع الاسلامي إذ ذاك وسهولة تداول الأفكار والأحكام فيه مشافهة، وغير ذلك...

٣ — الدور الثالث

عصر الخلافة الأموية

يبتدىء هذا الدور بتنصيب معاوية بن أبي سفيان خليفة على الدولة الاسلامية جميعها بعد وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه — عام (٤٠)هـ. وينتهي بسقوط حكم بني أمية واستيلاء العباسيين على الخلافة عام (١٣٢)هـ.

ويتميز هذا الدور باتساع رقعة البلاد الاسلامية ووصولها إلى الصين شرقا وفرنسا غربا، اتساعا سهل الكثير من الشعوب غير العربية مثل الفرس والروم وغيرهم الدخول في الاسلام. وبذلك دخل في جسم الدولة الاسلامية دماء متعددة جديدة إلى جانب الدماء العربية، ترفدها وتعضدها وتشد من أزرها.

وقد أمن هذا الاتساع للدولة الاسلامية مزيدا من الخبرات والمعارف والثقافة أدخلتها وحملتها معها الشعوب الأعجمية التي دخلت في الاسلام. وفي هذه الخبرات والمعارف صناعات وعلوم متنوعة متعددة، امتد أفقها إلى الطب والهندسة، والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية والفلسفية. كما رافق ذلك نهضة كبرى في كثير من العلوم الدينية والعربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وغيرها مما دعت إليه الحاجة.

فلقد كثرت مسائل الناس ومشاكلهم في هذا العصر وتعقدت علاقاتهم التجارية والصناعية... ودخل المجتمع المسلم عادات وأعراف وأفكار لم يكن له بها عهد، ولا بد من عرض كل ذلك على مصادر الاسلام واستفتائها فيه ليتبين صحيح ذلك من زيفه. فإن المسلمين لا يتقبلون جديدا إلا إذا — كان متمشيا مع دينهم وثقافتهم وتراثهم، أما ما كان منه مخالفا لما عندهم ومعارضا له فإنهم يرفضونه ولا يلتفتون إليه مهما كان مصدره، ورحم الله القائل: «وزن بوزن الشرع كل خاطر».

كل ذلك كان يلح على علماء المسلمين بالتفرغ لهذه المشاكل وهذه المسائل ودراستها وبيان حكم الاسلام فيها على ضوء نصوص القرآن والسنة وما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم. ذلك بعد أن كان العلماء يمارسون

الوظائف السياسية والقيادية. والمهن الحرة، إلى جانب اشتراكهم في الفتوحات الاسلامية مع الجند جنبا إلى جنب.

وتحت هذه المطالبة الملحة بالتفرغ للفكر والفتوى والقضاء والاجتهاد تفرغ بعض العلماء لذلك في هذا العصر الأموي، وبدؤوا يتصدون للتدريس في المساجد والجوامع والمدارس ويبذلون الجهد بما آتاهم من علم وذكاء وتقوى لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة — رضي الله تعالى عنهم — على ضوء اللغة العربية وأساليبها المتعددة تلك اللغة التي جاء بها القرآن والسنة.

وقد كثر هؤلاء العلماء يوما بعد يوم حتى غصت جوامع المسلمين بهم في كل الحواضر الاسلامية، مكة والمدينة، والبصرة، والكوفة، ومصر، وغيرها.

كما تعددت مذاهب هؤلاء العلماء وطرقهم في فهم نصوص القرآن والسنة منبع الثقافة الأصيل لديهم تعدد أساليب اللغة العربية وطرق دلالة ألفاظها على المعنى، حيث فيها العام والخاص، والمجمل والمفصل، والمطلق والمقيد، والمشكل والمتشابه والمشترك وغير ذلك.

ومع أواخر المئة الأولى من الهجرة بدأت هذه المذاهب تأخذ أبعادها وتتضح معالمها وتستبين مناهجها وتخصصاتها.

ولقد استمرت هذه الحركة العلمية في مسيرتها طوال القرن الثاني والقرون التي بعده حيث قعدت المذاهب وانتشرت في الآفاق وكثر اتباعها ومعتنقوها المدافعون عنها، ثم بدأت تعقد المناقشات والمساجلات العلمية في مختلف مجالات العلوم، وكان يحضر هذه المناقشات كبار العلماء المتخصصين إلى جانب جموع غفيرة من الطلاب، وكثيرا ما كانت هذه المناقشات تعقد في دار الخلافة في الشام ثم بغداد بعدها تحت إشراف الخلفاء، أو في دور الأمراء في الأمصار الاسلامية. وكان لهذه المناقشات صداها وأبعادها العلمية، فقد كانت الطريقة المثلى لفحص الأفكار وإلقاء الأضواء عليها، ومن ثم نشرها في انحاء البلاد على ألسنة العلماء والطلاب في زمن لم تكن الطباعة ووسائل النشر الحديثة معروفة فيه.

وسوف نحاول فيما يلي إلقاء الضوء بإجمال على هذه العلوم التي نشأت في هذا العصر، والأبعاد التي وصلت إليها، ولكن لما كانت هذه العلوم كثيرة ومتشعبة والالمام بها كلها يحتاج إلى توسع وتفصيل ليس هذا محله، فإننا سوف نقصر الكلام على علوم: التفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، وقواعد اللغة العربية تلك التي تعتبر أهم هذه العلوم وأبرزها في تكوين الصرح العلمي والثقافي الاسلامي في هذا العصر.

١ — علم التفسير في العصر الأموي:

نقصد بالتفسير هنا تلك الدراسات والشروح التي دارت حول بيان المعنى المراد من ألفاظ القرآن الكريم، وقد بزغ نجم هذا العلم في زمن النبي — صلى الله عليه وسلم — حيث كان يسأل عن معنى الآيات الكريمة التي غمض فهمها على بعض الصحابة فيجيب عن ذلك بما يوضح معنى الآية وأهدافها وأبعادها. وبعد وفاة النبي الكريم — صلى الله عليه وسلم — تولى علماء الصحابة هذه المهمة، فكانوا إذا عرضت لهم آية غمض عليهم معناها تتبعوا سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — علهم يجدون فيها التفسير الشافي فإذا عجزوا بذلوا جهدهم في فهمها بحسب قواعد اللغة العربية التي أنزل القرآن بها. وكان أشهر مفسري الصحابة عبدالله بن عباس الذي سماه النبي — صلى الله عليه وسلم — ترجمان القرآن. وهكذا كلما تقدمت الأيام وبعد الزمن عن عصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اشتدت الحاجة إلى التفسير، وكثر العلماء المتصدون لهذه المهمة. حتى إذا ما جاء العصر الأموي، وترامت أطراف الدولة، دخل عدد كبير من الأعاجم في الاسلام، واشتدت الحاجة إلى تفسير القرآن وإيضاح معانيه، تفرغ عدد من العلماء لتفسير القرآن ونذروا أنفسهم له، حتى أضاء نجمهم فيه. وتصدوا للافادة في مختلف مساجد الدولة الاسلامية الكبيرة.

وممن بزغ نجمه في هذا العلم من التابعين، أصحاب عبدالله بن عباس — رضي الله عنهم —

كمجاهد المتوفي سنة ١٠٣هـ، وعطاء ابن أبي رباح المتوفي سنة ١١٤هـ، وعكرمة المتوفي سنة ١٠٥هـ، وطاووس المتوفي سنة ١٠٦هـ، وسعيد بن جبير المتوفي سنة ٩٤هـ، وغيرهم. أما اتباع التابعين من المفسرين فهم كثيرون جدا نذكر منهم: سفيان بن عينية، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وأسحق بن راهوية، وغيرهم.

إلا أن جل التفسيرات التي صدرت عن علماء التابعين والتفسيرات التي صدرت عن النبي — صلى الله عليه وسلم — والصحابة قبلهم، لم تدون ولم تقعد في مصنفات خاصة بها على النمط الذي نرى التفسير عليه اليوم، ولكن جلها كان يتناقل مشافهة على السنة العلماء والطلاب في دروسهم ومناقشاتهم ومساجلاتهم، وقد استمر الأمر على ذلك إلى أول العصر العباسي حيث صنفت الكتب في التفسير وظهرت المذاهب فيه جلية واضحة. ومما يلاحظ أن جل هذه التفسيرات التي كانت تأتي على لسان التابعين كانت تقف عند حد المنقول عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه دون الزيادة عليه إلا ما كان من ذلك نذرا يسيرا، أي أنها كانت تقف عند حد التفسير بالمأثور. كما كانت هذه التفسيرات تنقل عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه بالسند المتصل، شأنها في ذلك شأن السنة تماما، ولذلك فإنه كان من السهل تفحصها وتبين الصحيح منها من الضعيف، إلا أن هذه الطريقة لم تستمر طويلا، فقد تغيرت في العصر العباسي لعدم كفايتها كما سوف نرى:

٢ — علم الحديث الشريف في العصر الأموي:

الحديث هو ما نقل عن النبي — صلى الله عليه وسلم — من قول أو فعل أو تقرير.

وقد كان الحديث في زمن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينقل عنه مشافهة ويتداوله الصحابة كذلك، ولما أراد بعض الصحابة كتابة الحديث نهاهم النبي — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك وقال «من كتب عني غير القرآن فليمحه» (رواه مسلم) وذلك خشية اختلاطه بالقرآن. إلا أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان يسمح لبعض الصحابة بشكل إفرادي بكتابة حديثه عندما يأمن عليهم اللبس مثل عبدالله بن عمرو بن العاص، فقد روى عنه أنه قال: قلت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — «يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضى والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقا». وبقيت السنة على ذلك تتداول مشافهة إلا نذرا منها يكتبه بعض العلماء لأنفسهم إلى عهد عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي المتوفى في آخر المئة الأولى للهجرة، حيث اشتد الخوف على ضياع السنة في ثنايا الأخبار الكثيرة التي بدأت تختلق على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد أمر عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه — العلماء بكتابة السنة وجمعها من صدور الرجال. وقد وردت أخبار كثيرة عن تكليف هذا الخليفة العادل عددا من العلماء الثقات بكتابتها، منهم أبو بكر بن حزم المتوفي سنة ١٢٠هـ. ومحمد بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ. وغيرهما.

ومنذ ذلك العهد تتابع العلماء على كتابة السنة والتصنيف فيها، وتفننوا في طريقة تدوينها وبيان صحيحها من ضعيفها، وقعدوا لذلك القواعد وأقاموا علما خاصا سموه (علم مصطلح الحديث). إلا أن العصر الأموي هذا لم يشهد للسنة مدونات كبرى تجمعه جمعا مدرسيا مرتبا كما هو الحال في كتب الحديث التي بين أيدينا، بل تأخر ذلك إلى العهد العباسي حيث ظهرت المدونات الكبرى في الحديث كما سوف نرى:

٣ — علم الفقه في العصر الأموي:

الفقه كما عرفه الامام أبو حنيفة (معرفة النفس مالها وما عليها). أي معرفة ما لها من الحقوق، وما عليها من الواجبات، نحو نفسها، ونحو ربها، ونحو أسرتها ومجتمعها وغير ذلك، لأنه به يتميز الحلال من الحرام، ويستطيع الانسان أن يتبين معالم الطريق إلى الله تعالى.

وقد بزغ فجر هذا العلم ببزوغ فجر الرسالة، حيث كان النبي — صلى الله عليه وسلم — الفقيه الأول الذي يرجع إليه في كل الأمور والمسائل ليبين فيها وجه الصحة من

الفساد وفقا لتعاليم القرآن الكريم ونصوصه وروحه وأهدافه وقد كانت مسائل الناس ومشاكلهم محدودة في عصره بالنظر لضيق المجتمع وصغر حجم الدولة إذ ذاك. وعندما انتقل النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى الرفيق الأعلى واتسع نطاق الدولة بعض الشيء في زمن الراشدين وكثرت المسائل والمشاكل المعروضة على القضاء، ولم تعد نصوص القرآن والسنة بمفهومها الظاهر كافية للاجابة عن هذه المسائل، عمد علماء الصحابة كما تقدم إلى الاجتهاد في هذه النصوص وحل المسائل الجديدة وفق روح هذه النصوص وعلى نسقها، وذلك بالاضافة إلى المهام الأخرى الكثيرة التي كانوا يشتغلون بها من تسيير امور الدولة والمشاركة في الفتوحات الاسلامية وغيرها. وهكذا استمر الأمر إلى عهد الأمويين حيث أصبحت المشاكل الفقهية تجل عن الحصر وتلح على الفقهاء بالتفرغ لها ودراستها واقتراح الحلول لها وفقا لنصوص القرآن والسنة.

عند ذلك بدأ العلماء بالتفرغ للفقه والتخصص فيه فظهرت المدارس الفقهية المتعددة في الأمصار الاسلامية، كمكة والمدينة والبصرة والكوفة ومصر وغيرها. وقد كثرت هذه المدارس وانتهج كل من العلماء المتخصصين في الفقه منهجا خاصا قد يخالف المناهج الأخرى في بعض جزئياته، وذلك أمر طبيعي لا بد منه، تقتضيه طبيعة الاجتهاد، وتفاوت الأفكار.

هذا ومن أشهر العلماء الذين لمعوا وعرفوا بالفقه والاجتهاد في هذا الدور ابراهيم النخعي، والحسن البصري، وإن كان لم يصل إلينا شيء من مؤلفاتهما إلا أن آراءهم وفقههم وصل إلينا أكثره على السنة تلامذتهم الذين حفظت لنا مذاهبهم ومدارسهم الفقهية كما سوف يأتي معنا في العصر العباسي.

٤ — علم أصول الفقه في العصر الأموي:

لم يكن علم أصول الفقه قد بزغ نجمه بعد في هذا الدور بالمعنى الكامل لكلمة علم، ولكنه وجد على صورة قواعد متناثرة، وضوابط مبعثرة تأتي على السنة الفقهاء في أبحاثهم ودروسهم دون أن يفردوها بالتصنيف والتقعيد، وقد استمر الأمر على ذلك إلى العصر العباسي حيث بدأ الحنفية والشافعية بالتصنيف في علم أصول الفقه كما سوف يأتي:

٥ — علم اللغة العربية في العصر الأموي:

اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي كان العرب في الجاهلية يستخدمونها للتخاطب فيما بينهم، وقد كانوا شديدي الحرص عليها نقية صافية من أي دخيل، وكانوا يعتزون ويفاخرون بها ولا يرضون لأحد منهم أن يتحدث بغيرها، او يدخل العجمة فيها، وعندما جاء القرآن بها ازدادت شرفا ومكانة وازداد تمسك العرب المسلمين بها اكثر فأكثر. وقد كان العرب يحفظون ويتداولون هذه اللغة مشافهة أبا عن جد دون أن يحتاجوا إلى تسجيلها في معاجم، او ضبطها بقواعد، فأذن العربي حساسة جدا تكتشف الدخيل على هذه اللغة بسرعة فائقة وترده، ولكن اتساع رقعة بلاد الاسلام بعد الفتوحات في العهد الأموي ودخول كثير من الأعاجم في الاسلام واختلاطهم بالعرب المسلمين وبأولادهم مهد السبيل لادخال العجمة في لغة هؤلاء الأولاد والأحفاد، وهو الخطر الكبير الذي كان يخشاه العربي محافظة منه على نقاء لغته لغة القرآن والحديث الشريف. وقد سمع بعض العلماء أحد الأعراب يلحن في لغته فأثار ذلك غضبه وشكوكه، ونبهه إلى موطن الخطر وشدة الحاجة إلى تقعيد هذه اللغة بعد جمعها وحفظها.

ومن هنا بدأ العلماء تترى يجمعون مفردات هذه اللغة من فم العرب الأقحاح، ثم ينظرون فيها ويستخرجون منها القواعد والضوابط التي تحفظ نقاءها وأصالتها وتبعد اللحن عنها.

ويروى أن أول من تنبه إلى هذا الخطر سيدنا علي بن أبي طالب حيث سمع إعرابيا في العراق يلحن في كلامه فعمد إلى رقعة وكتب فيها: (الكلام اسم وفعل وحرف) فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل). ثم دفع هذه الرقعة إلى أبي الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٧هـ وقال له (أنح هذا المنحى)

فأخذها أبو الأسود وبنى عليها. وقيل أن أول من تكلم في النحو نصر بن عاصم المتوفي سنة ٨٩هـ، وقيل غير ذلك. ثم تابع العلماء بعد ذلك السير في هذا الطريق يستنتجون القواعد من اللغة العربية التي يجمعونها من فم العرب الخلص طيلة العصر الأموي إلى أن جاء العصر العباسي الذي أصبحت فيه هذه الدراسات اللغوية تشكل صرحا لعلم عظيم هو علم اللغة العربية. عندها قام أفذاذ من العلماء مثل سيبويه والخليل بن أحمد والكسائي وغيرهم بجمع كل هذه الدراسات الماضية، وتنسيقها والزيادة عليها والخروج منها بعلم عالي البنيان ثابت الأركان، حفظ لهذه اللغة نقاءها وصفاءها. وهو ما سوف نشير إليه في العصر العباسي.

وبذلك نستطيع أن نقول أن العصر الأموي كان بحق عصر البدء بتكوين المذاهب في العلوم الاسلامية والعربية، حيث أن هذه العلوم زرعت بذرتها في عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — والراشدين بعده، ثم أصبحت هذه البذرة نبتة صغيرة في هذا العصر ثم اكتمل نموها في العصر العباسي الذي رعاها بالماء والغذاء اللازم لها حتى أصبحت شجرة كبيرة وأرفة الظلال تؤتى أكلها على أتم وجه وأكمله.

٤ — الدور الرابع

عصر الخلافة العباسية

بدأ هذا الدور بسقوط دولة بني أمية واستيلاء العباسيين على الخلافة ونقل مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد، وذلك في عام (١٣٢هـ)، واستمر إلى سقوط بغداد عام (٦٤٢هـ).

ويعتبر عهد العباسيين العهد الذهبي للثقافة الاسلامية، وبخاصة النصف الأول منه الذي انتهى بوفاة الخليفة المعتصم بالله. فقد شهدت الثقافة الاسلامية والعلوم الاسلامية نهضة واسعة في هذا العهد، وكان ذلك ناتجا عن استقرار الدولة من الناحية السياسية استقرارا وفر للعلماء الوقت والراحة والتفرغ للعلم. فازدهرت كل العلوم الاسلامية والعربية ازدهارا كبيرا، وانتشرت انتشارا واسعا، وظهرت المدارس العلمية لمختلف العلوم في شتى الأمصار، وأصبح لهذه المدارس رواد وتلاميذ ساعدوا على حفظ هذه المدارس وهذه العلوم إلى يومنا هذا. كما نشطت حركة الترجمة في هذا العصر وبخاصة في عهد الخليفة المأمون الذي نقل في عهده إلى العربية الكثير من كتب علوم الاغريق وغيرها، ونتج عن ذلك حضارة إسلامية رائعة كانت المنطلق للعالم كله، وبخاصة العالم الغربي إلى النهضة الحديثة التي يقطف العالم ثمارها اليوم. وذلك أمر شهد به الأعداء قبل أن يدعيه الأصدقاء. ولا زالت بعض كتب الطب والفلسفة والرياضيات التي خلفها علماء الاسلام مرجعا في كثير من جامعات العالم المتمدن إلى اليوم.

وقد امتاز هذا العصر عن العصر الأموي بظهور الكتب والمصنفات العلمية في مختلف العلوم، فبينما كانت العلوم عامة تتناقل في العصر الأموي مشافهة بين العلماء والطلاب في أكثرها أصبحت في هذا العصر مصنفات وكتبا يدونها العلماء ويتناقلها الطلاب ويتدارسونها ويفيدون منها، ثم ينقلونها إلى من خلفهم ليستفيدوا منها ويزيدوا عليها وهكذا دواليك.

كما امتاز هذا العصر بتقعيد المذاهب العلمية في التفسير والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم الأخرى. فبينما كانت هذه المذاهب العلمية نبتة صغيرة لما تستو على سوقها بعد في العصر الأموي أصبحت الآن في عهد العباسيين شجرة كبيرة مستقرة، ثابتة الأركان، واضحة المعالم، محدودة الحدود، مثمرة أينع الثمر.

وبذلك نستطيع أن نعتبر العصر الأموي عصر الأعداد والتهيئة العلمية للنهضة التي ظهرت في العصر العباسي.

وإذا أردنا إلقاء الأضواء أكثر من ذلك على النهضة العلمية في هذا العصر وبيان الخطوات التي قطعها كل علم فإنها على النحو التالي:

اولاً ــ علم التفسير في العصر العباسي:

فإننا نرى في علم التفسير ظهور عدد كبير من العلماء المتخصصين، وظهور عدد كبير من المصنفات في هذا العلم الجليل، كما ظهرت مذاهب واتجاهات عدة في التفسير أهمها:

١ ــ التفسير بالمأثور:

وذلك يعني الوقوف في معنى الآية الكريمة عندما ورد في تفسيرها في القرآن الكريم والسنة المطهرة دون الزيادة عليه. ومن أهم المفسرين في هذا المذهب.

(أ) الامام الطبري، وهو الامام ابو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي عام (٣١٠)هـ. وتفسيره المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) أقدم وأوسع التفاسير وأجلها، حيث بلغ ثلاثين جزءا كبيرا، ولا زال المفسرون ممن جاء بعده عالة عليه إلى يومنا هذا إذا استثنينا كتاب (مجاز القرآن) الذي ألفه (أبو عبيدة معمر بن المثنى) المتوفي عام ٢٠٩هـ. فإنه متقدم عليه، وإن كان ليس مثله في السعة والفائدة.

(ب) الامام البغوي، وهو الامام أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد الفراء البغوي المتوفي عام ٥١٦هـ. وله تفسيرا اسمه (معالم التنزيل) وهو تفسير متوسط في حجمه كبير في فائدته.

٢ ــ التفسير بالراي:

وهو يعني بذل الجهد في تحليل الآية الكريمة عربيا على ضوء ما جاء من شرح لها في الكتاب والسنة، دون الوقوف عند ما ورد في تفسيرها من النصوص. وليس معناه ــ كما يظن خطأ ــ ترك النصوص والعدول عنها إلى الرأي المجرد. فإن هذا ضلال حاشى أن يفعله مسلم بل عالم تقي.

ومن اشهر المفسرين في هذا المذهب:

(أ) الامام الرازي، وهو الامام فخرالدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي المتوفي عام ٦٠٦هـ. وتفسيره المسمى (مفاتيح الغيب) من أهم كتب التفسير بالرأي، وهو تفسير جامع كبير يقع في اثنين وثلاثين جزءا كبيرا، يستعرض فيه آراء العلماء في الآية الواحدة ويرتبها ترتيبا مدرسيا مفيدا يسهل الوصول إلى المعنى المراد.

(ب) الامام الزمخشري، وهو الامام أبو القاسم محمود ابن عمر الخوارزمي الزمخشري المتوفي عام ٥٣٨هـ وتفسيره المسمى بـ (الكشاف) من أعظم كتب التفسير لولا ميل مؤلفه إلى مذهب المعتزلة وانزلاقه في بعض متاهاتهم. والزمخشري هذا يعني في تفسيره بالتحليل اللغوي والفقهي مما يدل على طول باعه في هذه العلوم.

٣ ــ التفسير الاشاري:

وهو يعني بتفسير آيات القرآن الكريم بغير المعنى الظاهر المتبادر من الفاظه بالاعتماد على إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصرف. وكثيرا ما يتعذر الجمع بين هذا المعنى والمعنى الظاهر المتبادر.

هذا وقد وقف العلماء من هذا الاتجاه في التفسير مواقف متعددة، وكان جمهورهمْ على رفضه والابتعاد عنه ومنعه.

ومن أهم المفسرين في هذا المذهب:

(أ) ابن عربي، وهو الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي المتوفي في دمشق سنة ٦٣٨هـ. وتفسيره هو (إيجاز البيان) وهو تفسير مخطوط لم يطبع، وأما التفسير المطبوع المسند إليه فهو للكاشي وليس له.

(ب) الامام التستري، وهو الامام ابو محمد سهل بن عبدالله التستري المتوفي سنة ٢٨٣هـ. وتفسيره المسمى باسمه هو تفسير لبعض آيات القرآن الكريم فقط ولا يستغرق القرآن كله.

٤ ــ تفسير آيات الأحكام:

وهو يعني أفراد الآيات القرآنية التي جاءت متعلقة بالتشريع بالدراسة دون غيرها، ثم سبر أغوارها واستنباط الأحكام منها، وهذا الاتجاه أقرب إلى مسلك الفقهاء منه إلى مسلك

المفسرين، ومن أشهر علماء هذا الاتجاه:

(أ) **الامام الجصاص**، وهو الامام ابو بكر احمد بن علي الرازي المتوفي سنة ٣٧٠هـ. وكتابه اسمه (أحكام القرآن)، وقد عرض فيه كل آيات القرآن إلا أنه لم يعن إلا بتفصيل آيات الأحكام دون غيرها. وقد أفاض في شرحه لهذه الآيات حتى عد من أعظم المراجع في بابه، وهو في ثلاثة أجزاء كبيرة.

(ب) **الامام ابن العربي**، وهو الامام ابو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الأندلسي المتوفي سنة ٥٤٣هـ. وهو بطبيعة الحال غير ابن عربي صاحب تفسير (إيجاز البيان) الذي مر ذكره، وكتابه المسمى (أحكام القرآن) كتاب جليل في بابه لا يستغني عنه طالب العلم، وقد نحى فيه المؤلف منحى التفصيل والاستغراق في تفسير آيات الأحكام وتفنيدها ومناقشتها وهو مطبوع في أربعة أجزاء كبيرة.

ثانيا ـ علم الحديث الشريف في العصر العباسي:

وأما علم الحديث الشريف فقد كان العصر العباسي بالنسبة إليه العصر الذهبي، حيث عني العلماء والمحدثون بجمع الأحاديث وتنقيتها مما علق بها من الضعيف والمكذوب، ثم تصنيفها في مصنفات. وقد اختلف علماء الحديث في كتابتهم له وتصنيفهم فيه إلى طرق متعددة أهمها:

١ ـ كتب الصحاح:

وهي تعني بجمع الأحاديث الصحيحة التي استجمعت كل شروط الصحيح التي وضعها لها هؤلاء المؤلفون، وترك ما عدا ذلك. ثم كتابة هذه الأحاديث الصحيحة حسب أبواب الفقه التي تعالجها، كباب الطهارة وباب الصلاة.. وهكذا.

ومن أشهر العلماء الذين كتبوا على هذه الطريقة.

(أ) **الامام البخاري**، وهو الامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري المتوفي سنة ٢٥٦هـ. وكتابه المسمى بـ (صحيح البخاري) أهم كتب الحديث قاطبة وأصحها، حتى أن العلماء قالوا عنه (هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى). وقد نال هذا الكتاب



اهتمام العلماء به على مر العصور فشرحوه وعلقوا عليه. ومن أهم شروحه شرح الامام ابن حجر السقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. والمسمى بـ (فتح الباري) وهو مطبوع في ثلاثة عشر جزءا كبيرا. وشرح الامام بدرالدين العيني المتوفي سنة ٨٥٥هـ. والمسمى بـ (عمدة القارىء) وهو في أحد عشر جزءا كبيرا.

(ب) **الامام مسلم**، وهو الامام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفي سنة ٢٦١هـ. وكتابه اسمه (صحيح مسلم) وهو اعظم واصح كتاب في الحديث بعد صحيح البخاري، إلا أنه يزيد على صحيح البخاري بحسن تنسيقه وندرة المكرر فيه.

٢ ـ كتب السنن:

وهي تعني بجمع الحديث كله صحيحه وضعيفه إلا المكذوب منه أو المتهالك، ثم الاشارة

في أكثر المواضع إلى درجة الحديث من الصحة. وهذه الكتب ترتب الحديث على أبواب الفقه مثل كتب الصحاح السابقة ولا تختلف عنها إلا في الاشتمال على الأحاديث الضعيفة في كثير من الأحيان.

ومن أشهر العلماء الذين كتبوا على هذه الطريقة:

(أ) الامام الترمذي، وهو الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفي سنة ٢٧٩هـ. وكتابه اسمه (سنن الترمذي) وهو كتاب جليل القدر كثير النفع.

(ب) الامام النسائي، وهو الامام أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ. وكتابه اسمه (سنن النسائي) وهو كتاب قيم ونفيس أيضا.

٣ ــ كتب المسانيد:

وهي تعنى بجمع الحديث الصحيح والضعيف دون الهالك والمكذوب، ثم ترتيبها حسب رواتها من الصحابة دون النظر إلى موضوعها. فيذكر أبو بكر مثلا ثم تذكر بعده كل الأحاديث التي رويت من طريقه ثم عمر وهكذا...

واشهر من ألف في الحديث على هذه الطريقة هو الامام احمد بن حنبل الشيباني إمام المذهب الحنبلي المتوفي سنة ٢٤١هـ. وكتابه اسمه (مسند الامام احمد) وهو من أشهر كتب الحديث وأوسعها، ضمنه مؤلفه ما يزيد على ثلاثين الف حديث اختارها من نحو سبعمائة الف حديث. وهو مطبوع في ستة أجزاء كبيرة.

٤ ــ كتب المختارات:

وهي الكتب التي تعني باختيار أحاديث معينة من الكتب السابقة في موضوعات معينة خاصة، او تعنى بجمع أحاديث عدد معين من الكتب السابقة. وجل هذه الكتب تقف عند الأحاديث الصحيحة والحسنة دون الأحاديث الضعيفة.

ومن أشهر المؤلفين على هذه الطريقة.

(أ) الامام ابن الأثير، وهو الامام مجدالدين أبو السعادات مبارك بن محمد المتوفي سنة ٦٠٦هـ. وكتابه اسمه (جامع الأصول من أحاديث الرسول) ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد جمع فيه أحاديث الموطأ للامام مالك، وصحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والنسائي والترمذي، وذلك بعد تجريدها من أسانيدها إلا اسم الصحابي الأول. وهو كتاب عظيم القدر كثير النفع، جمع فيه كتبا في كتاب واحد، وقد زاد في تسهيله للطلاب والعلماء حذف الأسانيد منه وحسن ترتيبه على حروف المعجم.

(ب) الامام المنذري، وهو الامام زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذري الشامي المتوفي سنة ٦٥٦هـ. وكتابه اسمه (الترغيب والترهيب) جمع فيه الأحاديث المرغبة في أعمال الخير والمرهبة من افعال الشر والأثم. وقد رتبه على أبواب الفقه بعد حذف الأسانيد عدا الصحابي الأول. والتزم المؤلف فيه ذكر درجة الحديث عندما يروى عمن لم يلتزم الصحيح. وقد طبع الكتاب في أربعة أجزاء طبعات عدة. وهو كتاب لا يحسن أن يخلو منه بيت طالب العلم.

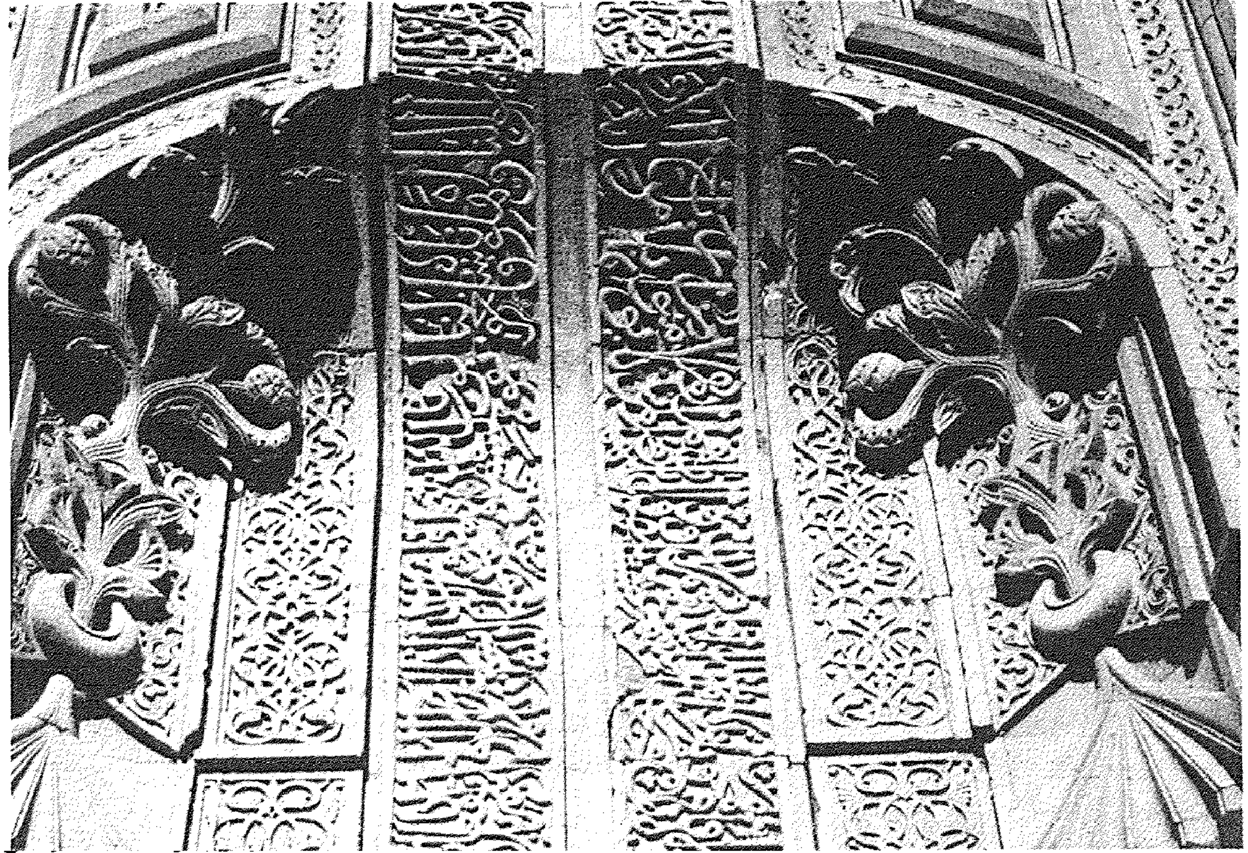
٥ ــ كتب احاديث الأحكام:

وهذه الكتب تعنى بجمع احاديث الأحكام فقط دون غيرها. ومن ثم شرحها واستنباط الأحكام منها.

ومن أشهر من كتب على هذه الطريقة:

(أ) الامام المقدسي، وهو الامام تقي الدين أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي المتوفي سنة ٦٠٠هـ. وكتابه اسمه (العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام). وقد جمع فيه أمهات أحاديث الأحكام مما أجمع عليه الأمامان البخاري ومسلم. والكتاب مطبوع في مجلد واحد عظيم النفع.

(ب) الامام ابن تيمية، وهو الامام مجدالدين عبدالسلام الحراني المتوفي سنة ٦٥٢هـ. وكتابه اسمه (المنتقى من اخبار المصطفى) وقد جمع فيه أحاديث الأحكام من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد والسنن الأربعة، ثم رتبها على ابواب الفقه. ولذلك فهو عظيم الفائدة، والكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، وقد شرحه العلامة الشوكاني في ثماني مجلدات مطبوعة في شرح اسمه (نيل الأوطار) وهو كتاب قيم ونفيس.



□ واجهة مئذنة في قونية ـ تركيا تعود إلى عام ١٢٥٨م.

٦ ـ كتب علوم الحديث:

هذا وقد صنف في هذا العصر إلى جانب كتب الحديث كتب لنقد الحديث ودراسة رجاله واسانيده، وبها استطاع العلماء المحافظة على الحديث الشريف نقيا بعيدا عن الزيف والكذب، وهذه الكتب منها ما يبحث في أحوال الرجال الذين نقلوا الحديث وتراجمهم واسمائهم، ومنها ما يبحث في علل الحديث وهي العيوب الخفية التي تقدح في صحة الحديث. ومنها ما يبحث في مصطلح الحديث. وأهم هذه الكتب التي الفت في هذا العصر:

(أ) في احوال الرواة وتراجمهم واسمائهم:

١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: للامام ابي عمر يوسف بن عبدالله ابن عبدالبر القرطبي المتوفي سنة ٤٦٣هـ. وهو مرتب على حروف الهجاء وجامع لأكثر الصحابة من رواة الحديث. ومطبوع في مجلدين كبيرين.

٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: للامام عزالدين ابي الحسن علي بن محمد (ابن الأثير) المتوفي سنة ٦٣٠هـ. وهو جامع لأكثر الصحابة ايضا ومطبوع في خمسة مجلدات.

٣ ـ الكنى والأسماء: للامام ابي بشر محمد بن احمد الدولابي المتوفي سنة ٣٢٠هـ. وهو مطبوع في جزئين.

٤ ـ الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب: للامام ابي نصر علي بن هبة الله بن مأكولا البغدادي المتوفي سنة ٤٨٦هـ. وهو مطبوع في مجلدين.

٥ ـ الأنساب: للامام ابي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المتوفي سنة ٥٦٢هـ. وهو كتاب كبير الحجم غزير الفائدة طبع منه في الهند إلى الآن ستة أجزاء متوسطة، ولما ينته طبع آخره بعد.

٦ ـ الضعفاء: للامام محمد بن اسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٦هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط، ذكر فيه مؤلفه اسماء الضعفاء فقط من رجال الرواية ورتبها على حروف الهجاء.

٧ ــ الضعفاء والمتروكين: للامام احمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ. وهو مرتب على حروف الهجاء أيضا ومقتصر على الضعفاء من الرواة خاصة، وهو مطبوع في جزء متوسط.

٨ ــ الجرح والتعديل: للامام عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي المتوفي سنة ٣٢٧هـ. وهو من اجمع كتب هذا الفن ومطبوع في تسعة أجزاء كبيرة ضمن (١٨٠٥٠) ترجمة.

(ب) في علل الحديث:

علل الحديث: للامام عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازي المتوفي سنة ٣٢٧هـ. وهو من اجمع كتب هذا الفن ومطبوع في مجلدين.

(ج) مصطلح الحديث:

١ ــ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: للامام أبي محمد الرامهرمزي الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد المتوفي سنة ٣٦٠هـ.

٢ ــ معرفة علوم الحديث: للامام ابي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفي سنة ٤٠٥هـ. وقد جمع فيه مؤلفه اثنين وخمسين نوعا من علوم الحديث وهو مطبوع.

٣ ــ الكفاية في علوم الرواية: للامام ابي بكر احمد بن علي المتوفي سنة ٤٦٣هـ. والمشهور بالخطيب البغدادي وهو مطبوع في مجلد واحد قيم.

٤ ــ علوم الحديث: للامام أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري المشهور بـ (ابن الصلاح) المتوفي سنة ٦٤٣هـ. وهو من أجمع وأدق كتب هذا الفن، وهو مطبوع في مجلد متوسط الحجم.

هذه نبذة مختصرة عن أهم المصنفات في الحديث الشريف وعلومه مع إلقاء ضوء خافت على تطور هذا العلم في هذا العصر ذلك التطور الذي تابع سيره عبر العصور المتتالية كما سوف نرى.

ثالثا ــ علم الفقه في العصر العباسي:

يعتبر العصر العباسي بحق العصر الذهبي للفقه الاسلامي، فقد قعدت فيه قواعده، واتضحت مذاهبه ومدارسه، وكثر دارسوه وعلماؤه، حتى غدا سمحا شامخا يفاخر به المسلمون الدنيا في كل عصر ومصر.

وقد ظهر في هذا العصر أئمة اعلام في مختلف العواصم الاسلامية أسسوا مذاهب فقهية متميزة، من أشهرهم الامام سفيان بن عيينة في مكة المكرمة، ومالك بن أنس الأصبحي في المدينة المنورة، والحسن البصري في البصرة، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت وسفيان الثورى في الكوفة، والأوزاعي في الشام، ومحمد بن أدريس الشافعي والليث بن سعد في مصر، وأسحق بن راهويه في نيسابور، وأبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهري وابن جرير الطبري في بغداد وغيرهم..

إلا أن كثيرا من هذه المذاهب اندثر عبر التاريخ وانطفأت شعلته وخفيت معالمه إلا ما جاء منه عرضا في مصنفات علماء المذاهب الأخرى التي خلدها التاريخ لنا. والسبب الرئيسي في اندثار هذه المذاهب فيما أظن ــ ميل أكثر علمائها إلى الاشتغال بالحديث الشريف واشتهارهم به مما كان له الأثر الأكبر في تركيز جهود طلابهم على ما عندهم من الحديث دون غيره من الفقه، هذا إلى جانب قلة طلاب بعضهم مما لم يتح معه نقل آرائهم إلى من بعدهم، كما حدث للامام الأوزاعي، فقد قال عنه أبو حنيفة «كان إماما جليلا إلا أن طلابه اضاعوه».

هذا وأشهر المذاهب الفقهية التي وصلت إلينا بالرواية الصحيحة المتواترة عن واضعيها هي المذاهب الأربعة المشهورة وهي المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي.

وإنني سوف القي الضوء الأول على هذه المذاهب بتعريف بسيط بمؤسسيها وطلابها وأهم المراجع العلمية التي حفظت لنا عنها في هذا العصر.

(أ) المذهب الحنفي:

أسس هذا المذهب الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي. وهو فارسي الأصل، ولد في الكوفة من أعمال العراق عام (٨٠هـ)، وتوفي في بغداد عام (١٥٠هـ).

ولذلك فإنه عاصر أواخر عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين.

أخذ أبو حنيفة العلم عن شيوخ عدة من اشهرهم حماد بن أبي سليمان تلميذ ابراهيم الضخعي وأرث علم عبدالله بن مصعود الصحابي الجليل الذي عرفه بالفقه والفتوى.

وقد أخذ عن أبي حنيفة العلم رجال كثيرون يجل عددهم عن الحصر، إلا انه تفوق منهم أربعة بلغوا مرتبة الاجتهاد وهم:

١ ـ الامام أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري المتوفي سنة ١٨٣هـ. وهو احظى تلاميذه عنده، وقد تولى إمامة حلقته من بعده، كما تولى القضاء للرشيد مدة حياته وكان قاضي قضاة الدولة الاسلامية، وقد ترك لنا أبو يوسف مصنفات كثيرة في الفقه والأصول والحديث أهمها كتاباه، الخراج والآثار.

٢ ـ الامام محمد بن الحسن الشيباني المتوفي سنة ١٩٨هـ. وهو ثاني تلاميذ أبي حنيفة بعد أبي يوسف، كان صغيرا عند وفاة أبي حنيفة لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره، ولهذا فإنه أتم علمه على أبي يوسف حتى عد من شيوخه، وقد تولى القضاء للعباسيين من بعده.

وقد حفظ لنا محمد هذا المذهب الحنفي في ستة مصنفات دون فيها كل آراء علماء المذهب، عرفت بكتب ظاهر الرواية وهي: الجامع الكبير، والجامع الصغير، والسير الكبير، والسير الصغير، والأصل ـ المبسوط ـ والزيادات.

وقد جمع بعد ذلك الامام الحاكم الشهيد أحد علماء الحنفية هذه الكتب الستة في كتاب جامع سماه (الكافي). وقد حظي هذا الكتاب باهتمام الفقهاء وعنايتهم به، فشرحوه وفصلوا أحكامه واستنبطوا منه، واشهر شروحه (المبسوط) لشمس الأئمة الرضي، وهو مطبوع في ثلاثين جزءا كبيرا.

٣ ـ الامام زفر بن الهزيل بن قيس التميمي المتوفي سنة ١٥٨هـ. وهو ثالث أئمة المذهب الحنفي بعد الصاحبين أبي يوسف ومحمد، اشتهر بحدة الزهن، ودقة القياس، وشدة الورع، وقد دعي للقضاء للعباسيين مرارا فأبى، فناله من ذلك الأباء بلاء شديد احتمله واحتسبه عند الله تعالى.

٤ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي المتوفي سنة ٢٠٤هـ. وهو رابع هؤلاء الأئمة بعد زفر، وقد اشتهر بالتقوى والورع والتفرغ للحديث الشريف.

هذا وقد انتشر المذهب الحنفي انتشارا واسعا في الدولة الاسلامية في زمن قضاء أبي يوسف ومحمد عبده، وفي زمن الدولة العثمانية التي كانت تعتبر المذهب الحنفي الرسمي للدولة. ولا زال هذا المذهب واسع الانتشار في العالم الاسلامي إلى اليوم، وهو المذهب الرسمي لأكثر الدول الاسلامية.

(ب) المذهب المالكي:

أسس هذا المذهب الامام مالك بن أنس الأصبحي عالم دار الهجرة الذي ولد في المدينة المنورة عام (٩٣هـ). وتوفي فيها عام (١٧٩هـ).

أخذ مالك العلم عن عدد من التابعين، منهم ابن هرمز، ونافع مولى عبدالله عمر الصحابي الجليل، والزهري، وربيعة الراي وهو أشهر شيوخه. وقد ترك مالك لنا مؤلفات قيمة أهمها (الموطأ).

وقد أخذ العلم عنه عدد من العلماء أشهرهم:

١ ـ عبدالرحمن بن القاسم المتوفي سنة ١٩١هـ. وهو أعلم أصحاب مالك وأحبهم إليه.

٢ ـ عبدالسلام بن سعيد التنوخي المعروف بـ (سحنون) المتوفي سنة ٢٤٠هـ. وقد صنف المدونة الكبرى التي هي أصح ما روى عن مالك، فحفظ بذلك أكثر مذهبه.

٣ ـ عبدالله بن وهب المتوفي سنة ١٩٧هـ. وقد اشتهر بالورع والزهد واعتزال القضاء رغم عرضه عليه.

هذا وقد أفاد من مالك عدد غير قليل من الأئمة الأعلام منهم الامامان أبو يوسف ومحمد تلميذا أبي حنيفة، والامام الشافعي الذي تتلمذ عليه تسع سنين في أول نشأته في المدينة، ثم تتلمذ بعدها على الامام محمد في بغداد سنتين بعد وفاة مالك فجمع بذلك بين فقه المدينة وفقه العراق، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقد انتشر المذهب المالكي في كثير من أصقاع العالم الاسلامي وبخاصة في بلاد المغرب

العربـي، ولا زال كذلك إلى يومنا هذا.

(ج) المذهب الشافعي:

مؤسس هذا المذهب هو الامام محمد بن أدريس الشافعي القرشي المطلبي، يلتقي مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في جده عبدمناف.

ولد الشافعي في غزة أو عسقلان من أعمال فلسطين عام ١٥٠هـ. وتوفي في مصر عام ٢٠٤هـ. وقد نبغ مبكرا وتصدى للفتيا والتدريس في مكة ولما بلغ سن الحلم بعد.

طاف الشافعي في حياته بعدد من الأمصار الاسلامية منها بغداد ومصر واليمن، وألف كتبا عدة جمعت آراءه ومذهبه، منها: الحجة، والأم، والرسالة.

أخذ الشافعي العلم عن عدد من كبار علماء عصره منهم سفيان ابن عينية، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن.

كما أخذ العلم عنه خلق كثير من أشهرهم:

١ — الحسن بن علي الكرابيسي، أخذ العلم عنه في بغداد.

٢ — اسماعيل بن يحي المزني، أخذ العلم عنه في مصر وتوفي عام ٢٦٤هـ. وقد ترك لنا مصنفات عدة أهمها مختصره الشهير باسمه، والجامع الكبير، والجامع الصغير وغيرها.

٣ — يوسف بن يحي البويطي، أخذ العلم عنه في مصر، وهو من أحب تلاميذه إليه، وقد كانت له إمامة حلقة الشافعي بعده بوصية منه، توفي عام ٢٣١هـ.

٤ — الربيع بن سليمان المرادي، أخذ العلم عنه في مصر، وتوفي عام ٢٧٠هـ. عن عمر يقارب المئة سنة.

وكان أكثر الناس مجالسة للشافعي، وقد روى عنه أهم كتبه: ومنها: الأم والرسالة.

هذا وقد انتشر المذهب الشافعي في أكثر البلاد الاسلامية، وبخاصة المشرق العربي والاسلامي، إلى جانب المذهب الحنفي.

(د) المذهب الحنبلي:

أسس هذا المذهب الامام احمد بن حنبل بن هلال ابن اسد الذهلي الشيباني، الذي ولد في بغداد عام ١٦٤هـ. وتوفي عام ٢٤١هـ.

اشتهر الامام احمد بالحديث قبل أن يشتهر بالفقه، وقد خلف لنا كتابه (المسند) وهو من اجمع كتب الحديث وأكثرها نفعا.

وقد امتحن أحمد في عهد المعتصم بالله بن الرشيد وسجن حتى نحل جسمه لمخالفته مذهب الاعتزال في خلق القرآن.

أخذ أحمد العلم عن الشافعي عندما قدم بغداد، كما تفقه بعدد كبير من العلماء.

وأخذ عنه العلم عدد من العلماء منهم:

١ — أسحق التميمي المعروف بـ (الكوسج المروزي) الذي توفي بنيسابور عام ٢٥١هـ.

٢ — الأثرم أبو بكر احمد بن محمد بن هانيء الطائي الخراساني المتوفي عام ٢٧٣هـ.

وقد انتشر المذهب الحنبلي في كثير من البلاد الاسلامية، وأهمها السعودية، وفلسطين، وسوريا، إلا أنه أقل انتشارا من المذاهب الثلاثة الأولى التي تقدم ذكرها على كل حال.

هذه نبذة عن كيان المذاهب الفقهية التي تأسست في هذا العصر ثم انتشرت في أرجاء العالم الاسلامي وتقبلها الناس جميعا وتلقوها بالاعجاب والاكبار. وهنا لا بد من الاشارة إلى أن هذه المذاهب بقيت إلى اليوم المذاهب المعتمدة لدى جميع المسلمين في أرجاء الأرض إلى جانب بعض المذاهب الأخرى التي لم يرتضيها ويتقبلها إلا فئة معينة من المسلمين دون غيرها كالمذهب الجعفري والمذهب الزيدي اللذين انتشرا بين الشيعة فقط، والمذهب الأباضي الذي انتشر بين الخوارج فحسب.

هذا وكل عمل العلماء المتأخرين بعد تأسيس هذه المذاهب كان دراسة هذه المذاهب والقياس عليها والترجيح بين ارائها والتدليل للأقوال التي وردت فيها وما إلى ذلك. وقد ألف العلماء من مقلدي هذه المذاهب في ذلك في هذا العصر كتبا عدة تعد إلى الآن موسوعات الفقه الاسلامي التي تمدنا بالعلم والمعرفة، ولولاها لضاع المسلمون في متاهات الجهل والضلال.

وأهم هذه الموسوعات الفقهية التي صنفت في هذا العصر.

١ ــ كتب في الفقه الحنفي:

١ ــ المبسوط: لشمس الأئمة السرخسي المتوفي سنة ٤٨٣هـ. وهو الكتاب الذي شرح فيه كتاب الكافي للحاكم الشهيد الذي جمع بدوره كتب ظاهر الرواية للامام محمد بن الحسن الشيباني، وقد تقدمت الاشارة إليه.

وهذا الكتاب هو بحق موسوعة الفقه الحنفي.

٢ ــ تحفة الفقهاء: للامام علاء الدين السمرقندي المتوفي سنة ٥٤٠هـ. وهو كتاب مطبوع في ثلاثة أجزاء متوسطة، سهل العبارة، حسن الأسلوب، كثير النفع.

٣ ــ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للامام علاء الدين الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧هـ. وهو تلميذ الامام السمرقندي صاحب التحفة، ويعد كتابه هذا بمثابة شرح لكتاب التحفة، وهو مطبوع في سبعة أجزاء كبيرة تعنى كل العناية بالأدلة العقلية والنقلية للمذهب، مع مناقشة أدلة المذاهب الأخرى المخالفة، وبخاصة ادلة المذهب الشافعي.

٢ ــ كتب في الفقه المالكي:

١ ــ المدونة الكبرى: للامام سحنون بن سعيد التنوخي تلميذ الامام مالك المتوفي سنة ٢٤٠هـ. وقد رواها عنه الامام عبدالرحمن بن القاسم، وقد حوت المدونة فقه الامام مالك، وتقدمت الاشارة إليها. وهي الآن مطبوعة في ثمانية أجزاء كبيرة.

٢ ــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد: للامام محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المتوفي سنة ٥٩٥هـ. وهو كتاب مختصر يجمع أصول المسائل الفقهية بعبارة موجزة جامعة، تحتاج إلى شرح مفصل. وقد طبع في جزئين متوسطي الحجم.

٣ ــ كتب في الفقه الشافعي:

١ ــ كتاب الأم: وهو من تاليف الامام الشافعي نفسه، ولكن الذي رواه عنه هو تلميذه الربيع المرادي كما تقدم، وأكبر الظن أن الربيع زاد عليه أشياء مما كان سمعه من الشافعي، وهو الآن مطبوع في سبعة اجزاء متوسطة.

٢ ــ المهذب: للامام أبي اسحق ابراهيم بن علي الشيرازي المتوفي سنة ٤٧٦هـ. وهو متن متوسط الحجم مطبوع في جزئين وقد بدأ بشرحه الامام النووي في كتاب سماه (المجموع)، ثم عاجلته المنية في عام ٦٧٦هـ. قبل الانتهاء منه.

٤ ــ كتب في الفقه الحنبلي:

١ ــ متن الخرقي: وهو متن صغير الحجم كثير النفع قام بشرحه الامام موفق الدين عبدالله بن أحمد (ابن قدامة) المقدسي المتوفي سنة ٦٢٠هـ. في كتاب كبير سماه (المغني)، وقد طبع في عشرة أجزاء طبعات عدة وهو بحق موسوعة الفقه الحنبلي، بل موسوعة الفقه الاسلامي كله، لأنه يتعرض في كل المسائل إلى آراء الفقهاء الآخرين بأمانة ونزاهة ويذكر أدلتهم ويقارن بينها بحصافة وعمق.

٢ ــ متن المقنع للامام موفق الدين بن قدامة سنة ٦٢٠هـ. وهو مجلد متوسط الحجم عني بشرحه بعد ذلك العلامة شمس الدين المقدسي كما سوف يأتي.

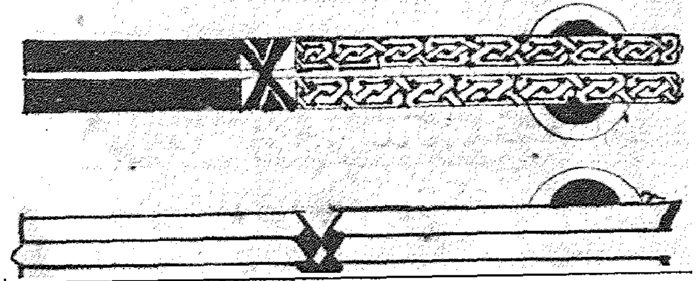
٣ ــ متن الاقناع للامام علي بن عبدالله بن نصر الزاغوني المتوفي سنة ٥٢٧هـ. وهو مطبوع في مجلد واحد.

رابعا ــ علم أصول الفقه:

بزغ نجم علم أصول الفقه بمعناه العلمي المدرسي مع نمو حركة تقعيد الفقه في أول هذا العصر. فقد كان في العصر الأموي كما تقدم مجرد قواعد متناثرة تاتي على السنة الفقهاء أثناء مناقشاتهم واستنباطهم، أما الآن فقد اصبح علما قائما بذاته له كتبه ومصنفاته. وأول من صنف في هذا العلم هو الامام ابو حنيفة النعمان إلا أن كتابه لم يصل إلينا وضاع في مسوداته. ثم الامام ابو يوسف تلميذه، لكن كتابه لم يبلغنا كذلك. وأول كتاب وصل إلينا فيه هو (الرسالة) للامام محمد بن أدريس الشافعي، ثم تتابع العلماء بعده يكتبون ويصنفون في هذا العلم حتى استوى على سوقه وأضحى برجا شامخا يضبط قواعد الفقه ويزنها بميزان ذهبي مستمد من الكتاب والسنة وعلوم اللغة العربية، وضوابط العقل الحصيف والمنطق السليم.

وقد يتساءل الانسان عن سبب تأخر نشوء هذا العلم رغم الحاجة إليه، والجواب أن





□ رسومات لبعض ادوات طب الاسنان.

الصحابة والتابعين كان لهم من صحبتهم للنبي — صلى الله عليه وسلم — وقرب عهدهم به وسلامة لغتهم ما يغنيهم عنه، ولكن عندما فسدت اللغة وابتعد الناس عن عصر النبوة ظهرت الحاجة لهذا العلم فاتجه العلماء عندها إلى إنضاجه والكتابة فيه.

وأهم وأشهر المؤلفات الأصولية التي ظهرت في هذا العصر بعد الرسالة للشافعي:

١ — كتاب الأصول للامام أبي الحسن الكرخي المتوفي سنة ٢٤٠هـ.

٢ — كتاب الأصول لأبي بكر الرازي المعروف بالجصاص المتوفي سنة ٣٧٠هـ.

٣ — تأسيس النظر للامام الدبوسي المتوفي سنة ٤٣١هـ.

٤ — البرهان لامام الحرمين الجويني المتوفي سنة ٤٧٨هـ.

٥ — المستصفى للامام أبي حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ.

خامسا — علوم اللغة العربية في العصر العباسي:

لقد شهد العصر العباسي نهضة كبيرة في علوم اللغة العربية اعتمدت على ما كان العلماء بدؤوه في العصر الأموي بعد أبي الأسود الدؤلي. فقد ظهرت في هذا العصر مصنفات كثيرة جمعت مفردات اللغة العربية ونسقتها على طريقة المعاجم، وشرحتها بما يوضح معانيها واستعمالاتها، كما ظهر علماء أفذاذ درسوا هذه المفردات وتفحصوها وخرجوا من ذلك بقواعد وضوابط نحوية تحفظ لهذه اللغة صفاءها ونقاءها من خطر اللحن الذي حف بها، وألفوا في ذلك الكتب والمصنفات الهامة التي بقيت وستبقى معينا لا ينضب وأصلا لا يستغني عنه أي دارس لقواعد اللغة العربية. كما ظهر ايضا إلى جانب هذه الدراسات النحوية دراسات لغوية تسبر غور اللفظ اللغوي لتفتش عما يكنه من معنى، ثم تربط هذا المعنى بصورة اللفظ وموسيقاه وهو ما عرف بعلم فقه اللغة. وسوف أذكر الآن أهم ما صنف في هذه العلوم اللغوية الثلاثة: المعاجم، والقواعد، وفقه اللغة.

(أ) المعاجم:

١ — الصحاح للامام أبي النصر اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفي سنة ٣٩٣هـ. وهو من اقدم وأدق المعاجم العربية، ومرتب ترتيبا الف بائيا. ومطبوع في ستة أجزاء كبيرة. وقد اختصره فيما بعد العلامة محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي في كتاب في جزء واحد متوسط الحجم سماه (مختار الصحاح) وهو كتاب مطبوع طبعات عدة، كثير النفع جليل القدر لا يستغنى عنه طالب علم بل طالب علوم العربية.

٢ — المخصص للامام أبي الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المعروف بـ(ابن سيده) المتوفي سنة ٤٥٨هـ. وهو كتاب عظيم القدر كثير النفع إلا انه غير مرتب على الطريقة الألف بائية، بل مقسم إلى كتب وأبواب حسب المعنى الذي تنتمي إليه الكلمة، وقد طبع هذا

الكتاب وذيل بفهارس تفصيلية تسهل الرجوع إليه والاستفادة منه.

وإن هذا الكتاب يعتبر من معاجم العربية كما يعتبر من مصنفات فقه اللغة أيضا نظرا لافاضته في معاني الألفاظ والغوص فيها إلى الأعماق.

٣ ــ اساس البلاغة للامام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ. وهو كتاب عمدة في بابه مرتب على أحرف الهجاء، يمتاز عن غيره من المعاجم بالتعرض للمعاني المجازية لكل لفظ يذكره. وهو مطبوع في مجلد واحد كبير عدة طبعات.

٤ ــ العين للامام الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفي سنة ١٧٥هـ. وهو أقدم معجم للعربية إلا أن بعض العلماء يشك في نسبته إليه، وقد طبع منه الجزء الأول فقط لأول مرة بتحقيق الدكتور عبدالله درويش.

(ب) القواعد:

تضم القواعد علمي النحو الذي يبحث في حركة آخر الكلمة، والصرف الذي يبحث في بنية الكلمة.

وقد ترعرع هذان العلمان في العصر الأموي بدءا من عهد الراشدين على يد أبي الأسود الدؤلي كما تقدم، إلا أن ازدهارها واكتمالها كان في أوائل العصر العباسي.

فقد أخذ هذا العلم عن أبي الأسود الدؤلي تلامذة أفذاذهم: عنبسة الفيل، وميمون الأقون، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وقد تابع هؤلاء التلامذة طريق شيخهم أبي الأسود، فعملوا في تقعيد اللغة واستنباط القواعد والضوابط منها.

وجاء بعد هؤلاء طبقة ثالثة من العلماء من تلامذتهم ساروا على نهجهم وتابعوا طريقهم، ومن أشهر علماء هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء المتوفي سنة ١٥٤هـ. وابن أبي اسحق الحضرمي المتوفي سنة ١١٧هـ. ثم جاءت طبقة رابعة وخامسة من تلامذتهم ايضا على رأسها يونس المتوفي سنة ١٨٢هـ. والأخفش المتوفي سنة ١٧٧هـ. والخليل بن احمد الفراهيدي المتوفي سنة ١٧٥هـ. وتلميذه سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ.

وهكذا تتابع العلماء في التأليف والتصنيف والتعقيد والضبط إلى أن تم بناء صرح النحو والصرف لهذه اللغة، مما حفظ نقاءها وصفاءها.

وإنه لا بد من الاشارة هنا إلى أن هذا العلم نشأ وترعرع في مدينة البصره من أعمال العراق، فقد حل فيها أبو الأسود الدؤلي ونشر علمه الذي تسلسل من بعده في تلامذته البصريين وهكذا إلى أول المئة الثانية للهجرة عندما انتقل من البصرة إلى الكوفة أبو جعفر الرؤاسي تلميذ أبي عمرو بن العلاء ونشر علمه فيها. وقد تخرج به جماعة من علماء الكوفة الذين كان لهم أكبر الأثر في حفظ العربية وعلومها إلى جانب اخوانهم البصريين وعلى رأسهم الكسائي والفراء.

وبذلك نرى أنه قد تأسس في علوم العربية مدرستان أحداهما فرع عن الأخرى هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وقد كان لكل من هاتين المدرستين علماء ومصنفات وأقوال ومخالفات لبعض آراء علماء المدرسة الأخرى بما يسمح بفصلهما عن بعضهما واعتبارهما مدرستين متميزتين.

هذا ويعتبر بحق سيبويه إمام مدرسة البصرة، والكسائي إمام مدرسة الكوفة.

ومن أشهر المصنفات العربية التي ظهرت في هذا العصر:

(أ) كتاب الفيصل للامام أبي جعفر الرؤاسي مؤسس مدرسة الكوفة، وهو قاصر على الموضوعات التالية: التصغير، الأفراد والجمع، والوقف والابتداء، معاني القرآن.

(ب) كتاب معاني القرآن للفراء المتوفي سنة ٢٠٧هـ.

(ج) كتاب الحدود للفراء نفسه.

(د) كتاب سيبويه للامام سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ. وهو أشهر كتاب في قواعد اللغة العربية على مر الدهر، وقد سمي عند النحويين بـ (الكتاب) لشهرته والوثوق به. وهو مطبوع في جزئين.

(ج) فقه اللغة:

١ ــ الخصائص: للامام أبي الفتح عثمان بن عمرو المشهور بـ (ابن جني) المتوفي

سنة ٣٩٢هـ. وهو من أقدم كتب فقه اللغة التي وصلتنا.

٢ ــ فقه اللغة وسر العربية للامام أبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩هـ. وهو من أكثر كتب هذا الفن فائدة.

هذه نبذه صغيرة عن تطور العلوم الاسلامية والعربية في هذا العصر ــ العباسي ــ الذي يعتبر بحق العصر الذهبي لهذه العلوم.

وهنا لا بد من الاشارة قبل اختتام هذا الفصل إلى تلك النهضة الكبيرة التي شهدها العصر العباسي في مختلف العلوم الأخرى كالتاريخ، والفلسفة، والطب، والهندسة، والحساب، والفلك، وغيرها من العلوم الكثيرة التي ظهرت أو نضجت في هذا العصر العظيم، والتي كان العامل الأكبر في إنضاجها هو حركة الترجمة التي حدثت في هذا العصر من اللغات السريانية والهندية والاغريقية وغيرها إلى اللغة العربية، تلك الحركة التي قام بها عدد كبير من العلماء العرب والأعاجم المسلمين، بل غير المسلمين أحيانا ممن توطنوا في الدولة الاسلامية.

وقد شجع العباسيون المترجمين على نقل علوم الأقدمين إليهم وأجزلوا العطاء للمترجمين، وبخاصة الرشيد وابنه المأمون الذي كان يعطي المترجم وزن كتابه فضة.

وقد أخذ علماء المسلمين هذه العلوم المختلفة فدرسوها وأفادوا منها ثم نقحوها ونقدوها وزادوا عليها وخلفوا لنا بعد ذلك تراثا ضخما من الكتب والموسوعات العلمية الكبيرة في مختلف هذه العلوم، وقد أصبحت هذه الموسوعات نواة الحضارة الحديثة في أوروبا، وبقيت تدرس في جامعاتها ردحا طويلا من الزمن، ومن أشهر الذين نبغوا في هذه العلوم حتى عرفت بهم وعرفوا بها: ابن سينا الذي بلغ إنتاجه العلمي نحو مئتين وستة وسبعين كتابا، وابن الهيثم وقد بلغ إنتاجه نحو مئتي كتاب، والبيروني والرازي والكندي، وقد بلغ إنتاج كل منهم ما يزيد على مئتي كتاب، وكذلك الجاحظ الذي بلغ إنتاجه ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابا في مختلف الفنون والعلوم.

ولا بد من الانتباه هنا أيضا إلى أن دور المسلمين في هذه العلوم لم يكن دور الناقل فحسب، فقد كان المسلمون ناقلين وناقدين ومتخيرين، ولا يمكن أن ــ يخفى على باحث مخلص ما أضافوه وعدلوه من العلوم والنظريات القديمة بل ما ابتكروه واستحدثوه أيضا في مختلف هذه العلوم. حيث تركوا لنا تراثا حضاريا وعلميا ضخما هو شاهد عدل على قدرة الاسلام على بناء المجتمع الفاضل.

٥ ــ الدور الخامس

العصور الوسطى، أو العصر الوسيط

العصر الوسيط مصطلح يطلقه كثير من العلماء والباحثين على الفترة التي تلت سقوط بغداد عام (٦٤٢)هـ. حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري.

ونحن لا نريد أن نناقش هؤلاء العلماء في دقة هذا المصطلح الآن لئلا يشغلنا ذلك عما نحن بصدده من رصد الحركة العلمية في هذه الفترة، ولأنه لا يهمنا التسمية التي تطلق على هذه الفترة بقدر اهتمامنا بحركة تطور العلوم الاسلامية فيها.

لقد حققنا في العصر العباسي أن العلوم الاسلامية وصلت فيه إلى الذروة في كافة مجالاتها وأقسامها، وقلنا أن العصر العباسي هو العصر الذهبي بالنسبة إلى هذه العلوم، وحق كل ما قلناه، فإن القرون التي تلت ذلك العصر لم تكد تزيد عليه كما ولا كيفا. ولكنها عملت فقط على بلورة تلك العلوم وتشذيبها وعقد المقارنات بينها، ثم التصنيف فيها وتبويبها وتقريبها إلى ذهن الطلاب بالشروح المفصلة والموسوعات الجامعة الفضفاضة.

والسبب في ذلك عندي هو وصول تلك العلوم إلى الذروة في العصر العباسي وعدم حاجتها للزيادة بعد ذلك إلا من حيث التبويب والتصنيف وهو الأمر الذي تم في هذا العصر، يضاف إلى ذلك شعور العلماء ببعض الفوضى السياسية والظلم والعنت في أكثر بلدان العالم الاسلامي مما حد من نشاطهم العلمي وقصر هممهم على الوقوف عندما تقدم من العلوم دون الزيادة عليها. وإن ذلك ليظهر جليا فيما سوف نستعرضه من الكتب التي تعتبر شروحا أو حواشي أو تقريرات أو تعليقات على الكتب العلمية الأولى التي تقدم بيانها.

ولكن هذا ليس معناه بحال أن العلم وصل في هذا العصر إلى طريق مسدودة وقف عندها، فإن هنالك جهودا كبيرة صرفت، وعقولا عظيمة عملت، وإنتاجا وفيرا تم إنضاجه، بل معناه أن الحركة العلمية أخذت طريقا أفقيا بدلا من الطريق العمودي الذي كانت عليه.

وفيما يلي أدراج لأهم الكتب والمصنفات التي برزت في هذا العصر في مختلف العلوم الاسلامية والعربية.

١ ــ كتب التفسير في العصر الوسيط:

(أ) الجامع لأحكام القرآن: للعلامة أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي المتوفي سنة ٦٧١هـ. وهو من أوسع كتب التفسير وأدقها وأكثرها عناية بالأحكام، وهو مطبوع في عشرين جزءا كبيرا، وقد قدم المؤلف في الجزء الأول مقدمة هامة جدا بيَّن فيها تعريف التفسير وأنواعه ومصادره وطرقه وما يتعلق بذلك.

(ب) أنوار التنزيل: للعلامة القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله ابن عمر البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥هـ. وهو تفسير مقتضب مطبوع في جزئين متوسطي الحجم إلا أنه عمدة المفسيرين والعلماء لدقته واحتوائه على المعاني الغزيرة في العبارات القليلة وكثيرا ما تعرض لنكات بلاغية وعلمية غفل عنها غيره.

(ج) مدارك التنزيل: للعلامة حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي المتوفي ــ سنة ٧٠١هـ. وهو كتاب متوسط الحجم طبع في مجلدين متوسطين، يقارب في حجمه تفسير البيضاوي السابق، كما يقاربه في إفادته. وهو تفسير شائع الصيت لدى العلماء والطلاب لصغر حجمه وسهولة عبارته.

(د) لباب التأويل في معاني التنزيل: للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن المتوفي سنة ٧٤١هـ. وهو تفسير متوسط الحجم مطبوع في سبعة أجزاء جامعة مفيدة.

(هـ) تفسير القرآن العظيم: للعلامة عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ. وهو مطبوع في أربعة أجزاء، تعد من أمهات كتب التفسير لاحتوائها على الأحاديث الشريفة التي توضح وتفسر الآيات الكريمة.

هذا وكتب التفسير كثيرة بعد هذه الكتب إلا أن أكثرها مأخوذ بعضه من بعض ومعتمد بعضه على بعض، فما من هؤلاء المؤلفين أحد إلا وهو تلميذ لمؤلف آخر أو شيخ له، وهكذا فإنك تجد المعنى الواحد يتكلم عنه المفسر ثم ينتشر بين المفسرين حتى تكاد لا تفقده في تفسير من هذه التفاسير، ولكن هذا لا يغض من قيمة هذه التفاسير، ولا يحول دون امتياز كل منها بأسلوب خاص وعناية واهتمامات معينة، فالفقيه تجده يكثر ويتفنن في استنباط الأحكام، واللغوي تجده يتفنن ويبدع في إظهار روعة الأسلوب ودقة التعبير وهكذا...

٢ ــ كتب الحديث الشريف في العصر الوسيط:

لقد تشعب علم الحديث كما تقدم في العصر العباسي، وكثرت المصنفات فيه، وقد تابع الحديث سيره في هذا العصر أيضا واستمر العلماء في التأليف والتصنيف فيه وإن كانوا شأنهم شأن العلماء الآخرين عالة على كتابات من سبقهم يعملون فيها تبويبا وتنقيحا ومقارنة ونقدا...

وأهم المصنفات الحديثة التي ظهرت في هذا العصر هي:

(أ) كتب الحديث الشريف:

١ ــ رياض الصالحين: للعلامة أبي بكر محي الدين يحي بن شرف النووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ. وهو مطبوع في مجلد كبير جامع لعدد كثير من الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تعني بتربية النفس من جميع نواحيها، ولهذا الكتاب شهرة كبيرة بين العلماء والطلاب والعامة حتى لا يكاد يخلو بيت مسلم منه.

٢ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للعلامة نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفي سنة ٨٠٧هـ. جمع فيه من الأحاديث ما زاد على الكتب الستة: صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه والترمذي، مما هو مذكور في مسند أحمد وغيره من كتب الحديث المعتمد. وقد بين بعد كل حديث درجته من الصحة والضعف، والعلل التي تعترضه وهو مطبوع في عشرة أجزاء متوسطة.

٣ ــ أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: للعلامة تقي الدين ابن دقيق العيد المتوفي سنة ٧٠٢هـ. شرح فيه كتاب عمدة الأحكام للمقدسي، وهو كتاب قيم مطبوع في جزئين.

٤ ــ بلوغ المرام من ادلة الأحكام: لشيخ الاسلام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. جمع فيه (١٥٩٦) من أحاديث الأحكام، وهو مطبوع في مجلد متوسط الحجم نال عناية العلماء والمحدثين فأكثروا فيه الشرح والتفصيل وممن عني بشرحه العلامة محمد بن اسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني الصنعاني المتوفي سنة ١١٨٢هـ. وهو مطبوع في اربعة أجزاء طبعات متعددة.

٥ ــ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار: للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥هـ. وهو شرح لكتاب المنتقى لابن تيمية الذي تقدم ذكره في العصر العباسي. وهو كتاب قيم لا غنى لطالب العلم عنه، ومطبوع في ثمانية أجزاء متوسطة.

(ب) كتب التراجم:

١ ــ تجريد أسماء الصحابة: للعلامة شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ. وهو مطبوع في جزئين.

٢ ــ الاصابة في تمييز الصحابة: للعلامة شهاب الدين احمد بن علي الكناني ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. وهو اجمع ما صنف في هذا الفن خاصا بأسماء الصحابة دون غيرها ومطبوع في خمسة أجزاء ومرتب على احرف الهجاء.

٣ ــ تذكرة الحفاظ: للعلامة محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي صاحب كتاب التجريد السابق، يذكر فيه الصحابة ومن بعدهم إلى القرن السابع الهجري، مرتبا إياهم طبقة بعد اخرى مبتدأ بطبقة الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين وهكذا. وهو مطبوع في أربعة أجزاء.

٤ ــ تهذيب التهذيب: للحافظ بن حجر العسقلاني صاحب الاصابة، وهو مستوفي لتراجم جميع الرجال، ومطبوع في إثنى عشر جزءا.

٥ ــ المشتبه في أسماء الرجال: للحافظ الذهبي صاحب التذكرة، وهو مرتب على حروف المعجم ومطبوع في جزئين.

(ج) كتب علوم الحديث:

١ ــ الباعث الحثيث: للعلامة ابن كثير صاحب التفسير المتقدم، وهو مطبوع في مجلد واحد متوسط الحجم، يضم أهم قواعد علوم الحديث بإيجاز واقتضاب.

٢ ــ تدريب الراوي في شرح تعريب النواوي: للعلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ. شرح فيه كتاب التقريب للنووي، وهو مطبوع في جزئين.

(د) كتب الفقه في العصر الوسيط:

لقد تابع العلماء والفقهاء في هذا العصر جهودهم في البحث والتنقيب عن الحكم الشرعي إلا أن جل عمل الفقهاء في هذا العصر كان التنقيب في كتب المتقدمين وتنقيحها والزيادة عليها أو الحذف منها أو الترجيح بين الأقوال التي احتوتها. ومن ثم كثرت الشروح والحواشي والتقريرات على كتب المتقدمين. ولكن هذا لا يعني بحال ركود حركة الابداع في الفقه بل هنالك كتب قيمة ظهرت وتعد بحق قمة في علم

الفقه إلا انها قليلة إذا ما قيست بكتب الأقدمين إلى جانب انها معتمدة كليا على آراء السلف واستدلالاتهم.

ولقد كان لهذه المؤلفات والشروح التي ظهرت في هذا العصر في علم الفقه أكبر الأثر في تنقيح هذا العلم وتبويبه والافادة منه، ولولاها لبقي الفقه في مسوداته الأولى بين تصانيف المتقدمين مشوشا تصعب الاستفادة منه على الوجه الأكمل.

وأهم وأشهر هذه المصنفات التي وجدت في هذا العصر:

(أ) كتب الفقه الحنفي:

١ ــ الهداية شرح بداية المبتدى، وبداية المبتدى كتاب مختصر عظيم الفائدة كثير النفع ألفه العلامة علي بن أبـي بكر المرغيناني المتوفي بعد المئة السادسة للهجرة ولكنه بعدما ألفه أدرك أنه صغير الحجم ضيق العبارة فشرحه في أربعة أجزاء متوسطة الحجم وسماه الهداية، فحل بذلك ألغازه وفك عقده وسهله للعلماء والطلاب.

٢ ــ فتح القدير للعلامة الكمال بن الهمام المتوفي سنة ٨٦١هـ. وهو شرح على كتاب الهداية المتقدم، وهو شرح قيم مطبوع في ثمانية أجزاء بسط فيها المؤلف الأدلة النقلية، والعقلية كما تعرض لأقوال المذاهب الأخرى وبخاصة المذهب الشافعي، وعقد المقارنة بينها، وقد كان ينتهي إلى ترجيح أحد المذاهب الأخرى على المذهب الحنفي في بعض المسائل إذا ما انتهى به الدليل إلى ذلك وفاء بالأمانة العلمية.

هذا إلى جانب أن للهداية شروحا وحواشي أخرى غير فتح القدير وأغلبها مطبوع على هامش الهداية مع فتح القدير.

٣ ــ حاشية رد المحتار على شرح الدر المختار على متن تنوير الأبصار للعلامة محمد أمين بن عمر عابدين المتوفي سنة ١٢٥٢هـ. وهي حاشية جليلة جامعة لمختلف أجزاء المذهب الحنفي المبعثرة في مؤلفات علمائه، وهذه الحاشية هي شرح لكتاب الدر المختار للعلامة الحصكفي المتوفي سنة ١٠٨٨هـ. الذي هو بدوره شرح هام لمتن تنوير الأبصار للعلامة شمس الدين التمرتاشي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ. والكتاب مطبوع في خمسة أجزاء طبعات عدة.



□ الطبيب العربـي: ابن سينا.

ويكفينا إشادة بقدر هذا الكتاب أن قال عنه أحد العلماء: لو ضاعت كتب الحنفية كلها لأغناهم عنها ابن عابدين.

(ب) كتب الفقه المالكي:

١ ــ متن سيدي خليل للامام خليل بن اسحاق بن موسى الجندي المتوفي سنة ٧٧٦هـ. وهو أم كتب المالكية في هذا العصر. وقد حظي هذا الكتاب المختصر بعناية لم يحظ بها مختصر قبله، حيث كثرت شروحه وكان أهمها:

اولا ــ مواهب الجليل: للعلامة محمد بن محمد المغربـي المشهور بالحطاب المتوفي سنة ٩٥٤هـ. وهو مطبوع في ستة أجزاء، ويعتبر من أهم وأشهر شروح سيدي خليل.

ثانيا ــ الشرح الكبير: للعلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن أبـي حامد العدوي الشهير بالدردير المتوفي سنة ١٢٠١هـ. وهو مطبوع في

أربعة أجزاء كبيرة وهو أسهل شروح متن سيدي خليل وأكثرها انتشارا.

ثالثا ــ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للعلامة محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي المتوفي سنة ١٢٣٠هـ. وهي حاشية هامة جدا لا يستغني الطلاب عنها في مراجعتهم للشرح الكبير المذكور، وهي مطبوعة في هامشه.

رابعا ــ منح الجليل: للعلامة محمد بن أحمد عليش المتوفي سنة ١٢٩٩هـ. وهو مطبوع في مجلدين كبيرين.

(ج) كتب الفقه الشافعي:

١ ــ المجموع شرح المهذب: للعلامة يحيي بن شرف النووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ. وهو شرح لمتن المهذب للامام الشيرازي، ويعد بحق موسوعة الفقه الشافعي، إلا أن مؤلفه عاجلته المنية قبل اتمامه وقد طبع في تسعة أجزاء، وجاء بعده العلامة تقي الدين السبكي المتوفي سنة ٦٥٧هـ. وتابع الطريق في إتمام شرح المهذب وكتب فيه ثلاثة أجزاء ثم عاجلته المنية قبل إتمامه ايضا، وقد طبعت هذه الأجزاء الثلاثة والحقت بشرح النووي.

٢ ــ المنهاج: للعلامة النووي صاحب المجموع المتقدم، وهو مختصر صغير كثير الفائدة، حظي بشرح العلماء له واهتمامهم الكبير به، ومن أشهر شروحه، نهاية المحتاج للعلامة الرملي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ. وتحفة المحتاج للعلامة ابن حجر الهيثمي المتوفي سنة ٩٧٣هـ. ومغني المحتاج للعلامة الخطيب الشربيني المتوفي سنة ٩٧٧هـ. رحمة الله عليهم. وكل هذه الكتب مطبوعة ومتوفرة.

٣ ــ الأشباه والنظائر: للعلامة جلال الدين السيوطي، المتوفي سنة ٩١١هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط الحجم.

(د) كتب الفقه الحنبلي:

١ ــ كشاف القناع: للعلامة منصور بن أدريس البهوتي المتوفي سنة ١٠٥١هـ. وهو شرح على متن الاقناع للعلامة علي بن عبدالله الزاغوني وقد تقدم ذكره.

٢ ــ الفتاوى الكبرى: للعلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية) المتوفي سنة ٧٢٨هـ. وهو مطبوع.

٣ ــ الفروع: للعلامة محمد بن مفلح المقدسي المتوفي سنة ٧٦٢هـ. وهو مطبوع أيضا.

٤ ــ الشرح الكبير: للعلامة شمس الدين عبدالرحمن بن قدامة المقدسي المتوفي سنة ٦٨٢هـ. وهو شرح لمتن المقنع الذي تقدم ذكره ومطبوع مع المغني على متن الخرقي في عشرة أجزاء في طبعة جيدة جدا.

٤ ــ كتب أصول الفقه في العصر الوسيط:

(أ) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: للعلامة عز الدين بن عبدالسلام المتوفي سنة ٦٦٠هـ. وهو مطبوع في مجلد واحد.

(ب) أصول الفقه: للعلامة ابن تيمية صاحب الفتاوى الكبرى وهو مطبوع.

(ج) الموافقات في أصول الشريعة: للعلامة أبي أسحق ابراهيم ابن موسى الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ. وقد نحى فيه مؤلفه منحى جديدا خالف فيه من سبقه، مما جعل المشتغلين بهذا العلم يزدادون به تعلقا وتقديرا. وهو مطبوع في أربعة أجزاء.

(د) مسلم الثبوت: للعلامة محب الله بن عبدالشكور المتوفي سنة ١١١٩هـ. وهو مطبوع في جزئين في هامش المستصفى للغزالي.

(هـ) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٠هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط جامع لمختلف أبواب الأصول في عبارة مقتضبة.

٥ ــ كتب علوم اللغة العربية في العصر الوسيط:

(أ) كتب فقه اللغة:

المزهر في علوم اللغة وأنواعها للعلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ. وهو كتاب قيم يعتبر مرجعا أساسيا في فقه اللغة. وهو مطبوع في جزئين.

(ب) كتب القواعد:

لقد ظهر في هذا العصر عالمان جليلان احتلا المكانة الأولى في علم قواعد اللغة العربية



□ ابن الهيثم.

حتى غطى ذكرهما وآثارهما على من عداهما من العلماء الكثيرين، وهما العلامة جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد الشهير بـ (ابن هشام) المتوفي سنة ٧٦١هـ. والعلامة عبدالله بهاء الدين الشهير بـ (ابن عقيل).

وقد ترك هذان العالمان لنا من المصنفات ما يعتبر إلى اليوم المرجع الهام في هذا العلم.

ومن أشهر آثارهما.

(أ) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: وهي منظومة شعرية جمعت خلاصة قواعد العربية نحوا وصرفا، ألفها العلامة ابو عبدالله محمد جمال الدين بن مالك الطائي الأندلسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ. وقد شرحها ابن عقيل شرحا مختصرا وافيا حل فيه معاني أبياتها، وفتح القواعد المكنونة فيها، وقد طبع هذا الشرح مع الألفية في جزئين مرات عدة وأفاد الطلاب منه فوائد كبيرة.

(ب) أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك: للعلامة ابن هشام، وهو شرح آخر لطيف لألفية ابن مالك السابقة.

(ج) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للعلامة ابن هشام، وهو كتاب في جزئين كبيرين، تناوله العلماء بعد ابن هشام بالدراسة والشرح والتفصيل، وتداوله الطلاب وأفادوا منه كثيراً حتى عدَّ في قمة كتب القواعد. وقد طبع طبعات عدة. ومن أكثر شروحه ذيوعا، حاشية العلامة الأمير، وحاشية العلامة الدسوقي عليه.

(د) شذور الذهب: لابن هشام، وهو كتاب جامع لقواعد العربية في أسلوب سهل مقتضب وقد ألفه ابن هشام متناً صغيرا ثم

شرحه بنفسه، وهو مطبوع في مجلد واحد.

(هـ) قطر الندى وبل الصدى: لابن هشام، وهو كتاب مقتضب صغير في النحو يبتدىء الطلاب به دراستهم عادة.

٦ ـ الدور السادس

العصر الحديث

إن كانت العلوم الاسلامية في العصور الوسطى قد أصابها شيء من الجمود والركود في خط سيرها من الاتجاه نحو العمق إلى الاتجاه نحو السطح، فأن الركود الذي أصاب هذه العلوم في العصر الحديث كان أشد وأقسى، فحد من نشاط سيرها في أي اتجاه كان نحو العمق او نحو السطح، وجعلها ترقد في بوتقة مظلمة لا ترى النور إلا من نوافذ صغيرة قليلة لا تكاد تلقي إلا بصيصا من الضوء الخافت على ذلك التراث الضخم فتحول دون موته وفنائه.

واسباب ذلك كثيرة على راسها ــ في نظري ــ الاستعمار السياسي والعسكري والثقافي الذي سيطر على البلدان الاسلامية ردحا من الزمن فحجب عن أبصارها وميض تراثها العلمي الكبير، واورث في نفوس بعض أبنائها احتقاره وازدراءه والتبرؤ منه (والانسان عدو ما يجهل).

وقد تسبب عن هذا الاستعمار انخفاض مستوى التعليم عامة في هذه البلاد وانخفاض مستوى الاهتمام باللغة العربية خاصة، حتى أنك لتكاد تطلق على كثير ممن يدعون العلم في هذا العصر (عوام في اللغة العربية) بل هم عوام فعلا لأن لسانهم لا يطاوعهم على إساغتها في كتاباتهم ومحاضراتهم، ومحادثاتهم فيستبدلونها باللغة العامية المحلية التي يقتنونها، ويعتبرون ذلك تقدما ونضجا وبعدا عن التزمت.

ومعلوم أن اللغة العربية الفصحى هي طريقنا الوحيد إلى نبش وفهم علوم من سبقنا وإساغتها ثم الزيادة عليها، فلما انخفض مستوى اللغة العربية انقطع الطلاب والعلماء عن تراثهم وانصرفوا عن الاهتمام به فبقي راقدا على رفوف المكتبات ينتظر اليوم الذي تصحح فيه المفاهيم وتزول قبضة الاستعمار فتمتد إليه الأيدي الخبيرة للاستفادة والبناء.

وقد ساعد على تمركز هذا الركود في ربوعنا، وطول مكثه بيننا اتجاه كثيرين من قادة الفكر والعلم بيننا إلى الاعجاب بالحضارة الأوروبية وما أبدعته من علوم، واحتقار الحضارة الاسلامية وما خلفته من كنوز، مما كان له أكبر الأثر في انصراف الطلاب والمثقفين عن العناية بدراسة كنوزنا وعلومنا وتراثنا، واتهامهم لهذه المصنفات والموسوعات العلمية الرائعة بالعقم والجمود والصعوبة والقصور وعدم مسايرة روح العصر، وما درى هؤلاء أن القصور في افهامهم لا في هذه الكتب وأن العقم في طريقة تعلمهم وتعليمهم لا في طريقة تأليف وإعداد هذه المصنفات، وأن عليهم أن يكيفوا انفسهم وفقا لها، وأن يحاولوا جهدهم تفهمها وإساغتها، لا أن يتركوها ليعفوا عليها التراب ثم يتهموها بالجمود والعقم. أنه العقوق للسلف الصالح والصرح العلمي المشيد الذي ورثته هذه الأمة العتيدة عن أجدادها.

ولكنه لا بد هنا من أن أعود إلى ما كنت اشرت إليه في أول هذه الكلمة من أننا لم نعدم في هذا العصر نوافذ متفرقة يدخل منها النور إلينا وسط ذلك الظلام الدامس الذي نعيش فيه، فهنالك علماء أفذاذ استطاعوا أن يدعوا في العلم، وأن يتابعوا طريق السلف الصالح في السير فيه، إلا أن هؤلاء قلة في أكوام أدعياء العلم والمعرفة الذين لم ينالوا من الثقافة الاسلامية إلا ما سمح لهم به المستشرقون ومن طعموا على موائدهم، وقدموه لهم في مؤلفات براقة مزورة تدخل الشكوك إلى نفوسهم وتطبعهم بطابع خاص، يجعلهم يتنكرون لتراثهم وعلمهم، ويقعون

في الأخطاء، ويتيهون في متاهات تنحرف بهم عن خط إسلامهم.

وإنني فيما يلي سوف أحاول استعراض بعض المصنفات العلمية التي استطاعت أن تحافظ على نقاء تراثنا. وتسعى جهدها لمتابعة السير فيه إلى الأمام ترتيبا، وتبويبا، وتخريجا، وترجيحا، وتبسيطا، على سنن ما كان يفعله العلماء في العصور الوسطى، دون استقصائها، وذلك مخافة الحيف أو الزلل أو الاطراء أو الغمط، على أن جل هذه المؤلفات أيضا كان همه الأول التبسيط والتذليل لعلوم السابقين وجعلها تلائم طبيعة العصر ومستوى الثقافة فيه، أكثر من الاهتمام بالابداع والبحث والزيادة على ما كتبه واعده السلف الصالح.

وكم كان بودي لو يخصص هؤلاء العلماء بعض جهدهم للعمل على رفع مستوى الطلاب إلى ذلك التراث إلى جانب النزول بالتراث إلى مستوى هؤلاء الطلاب. فإن في هذا الرفع وصلهم بتراثهم العتيد، وفي ذلك التذليل قطعهم عنه واتخاذ واسطة بينهم وبينه هي الأستاذ أو الكتاب الحديث، ولكن لعلي التمس لهؤلاء العلماء بعض العذر في أن التبسيط بمقدورهم أما الارتفاع بمستوى الطلاب فإنه يفوق طاقتهم وخارج عن حدود وسعهم، لأنه بحاجة إلى تضافر الجهود ومعاونة المسؤولين لتغيير طبيعة المناهج العلمية والثقافية التي عليها العمل في البلدان الاسلامية.

ولكنني على أي حال أرى أن بوسع العلماء عمل الكثير من أجل رفع المستوى. وأول ذلك القيام بتحقيق كتب السابقين والتعليق عليها بما يجعلها قريبة محببة إلى طلاب العلم، وغير ذلك. وهو أمانة الله في أعناقهم، عليهم أن ينهضوا بها ويقوموا بواجبها في حدود طاقتهم وإمكاناتهم.

كما إنني أود أن أنبه إلى خطر كبير وخطأ فادح تسير عليه جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية في العالم الاسلامي، وهو استبدال المراجع العلمية بالمذكرات الجامعية، حيث يعمد الأستاذ إلى كتابة مذكرة يجمعها ويلفقها من عدد من المراجع ويقدمها للطلاب في أسلوب سهل مبسط يغنيهم في كثير من الأحيان عن الرجوع إلى المراجع الأصلية في المادة المدروسة، ويؤمن لهم أكبر



□ رشيد رضا.

حجم ممكن من المعلومات في أقل وقت وأسهل طريقة.

فإن ذلك في نظري خطر فادح ينبغي التنبه له، لأن العلم ليس بحفظ الجزئيات، وإن هذه الجزئيات هي أول ما يتبخر من الذهن عقب الامتحان بأيام إن لم يكن بساعات، إنما العلم هو اتساع المدارك والقدرة على المحاكمة والمناقشة والتحليل والتركيب، وهذا لا يتأتى بحفظ الجزئيات بأي طريق كان، إنما يحصل ببذل الجهد واستنفاد القدرات، وبقدر الجهد المبذول يحصل النمو في الحواس المدركة، وهذه المذكرات المستحدثة توفر للطالب كثيرا من الجهد فتحرمه بذلك كثيرا من العلم. وإنني في هذا لا أدعو لتعقيد العبارات والايهام في المصنفات، وتحويلها إلى ألغاز، ولكنني أشير إلى أن زيادة التسهيل تقضي على العلم وتستأصله.

هذا إلى جانب أن هذه المذكرات تقطع الطلاب عن مراجعهم التي سوف يحتاجون إليها في مستقبل أيامهم، وتتركهم حيارى أمام أي معضلة تصادفهم في مستقبل أيامهم لم يكونوا قد درسوها في مذكرة أستاذهم.

هذه لفتة نظر مخلصة احببت أن لا تفوتني وأنا أشير إلى وضع الحركة العلمية في عصرنا الحاضر، فإنها أمانة في عنقي بعدما ادركت خطورتها على علومنا وجيلنا.

بعض المصنفات العلمية التي ألفت في العصر الحديث

١ ــ في التفسير:

(أ) تفسير المراغي: لفضيلة الشيخ أحمد مصطفى المراغي المتوفى منذ مدة غير طويلة وهو كتاب قيم سهل نحا فيه مؤلفه منحى بسيطا، حيث أنه يذكر الآيات التي يريد تفسيرها متتابعة ثم يتبعها بشرح الكلمات الغامضة، وبعدها بشرح إجمالي يبين الاطار الذي تدخل فيه هذه الآيات موضحا السباق والسياق، وبعد ذلك يبتدأ بالشرح التفصيلي للآيات محل التفسير. وهو مطبوع في ثلاثين جزءا متوسطا.

(ب) تفسير المنار لفضيلة الشيخ محمد رضا تلميذ العلامة محمد عبده، وهو شرح قيم مطبوع قسم منه في ثلاثة عشر جزءا. وقد ضمنه مؤلفه آراء الامام محمد عبده كلها تقريبا، ولذلك فإن بعض الناس يعزوه إليه بدلا من رشيد رضا. وهو يمتاز بالتحليل الواسع والاستدلال المنطقي والفلسفي في كثير من الأحيان.

(ج) التفسير الواضح لفضيلة الشيخ الحجازي، وهو من علماء الأزهر المعاصرين، والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات، وقد انتهج فيه مؤلفه منهج تفسير المراغي المتقدم.

٢ ــ في الحديث:

(أ) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لفضيلة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي المتوفي سنة ١٣٣٢هـ. وهو كتاب قيم في علوم الحديث ومطبوع.

(ب) منهج النقد عند المحدثين لفضيلة الدكتور الشيخ نورالدين عتر من العلماء المعاصرين، وهو كتاب جامع لعلوم الحديث في أسلوب جديد وتبويب حديث. وهو مطبوع في مجلد متوسط.

(ج) التاج الجامع للأصول لفضيلة الشيخ منصور بن علي ناصيف من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في خمسة أجزاء جمعت ما في الكتب الخمسة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، بعد حذف أسانيدها وتبويبها تبويبا جديدا يسهل الرجوع إليها واستخراجها.

(د) السنة قبل التدوين: لفضيلة الدكتور محمد عجاج الخطيب من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في مجلد كبير.

٣ ــ في الفقه:

(أ) التشريع الجنائي الاسلامي: لفضيلة الأستاذ عبدالقادر عودة المتوفي منذ مدة قريبة وهو مطبوع في جزئين متوسطين، يعرض فيهما المؤلف أحكام الشريعة الاسلامية في الجنايات إلى جانب أحكام القوانين الوضعية فيها، بأسلوب سهل مرتب مقارن.

(ب) الجريمة والعقوبة في الشريعة الاسلامية: لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة من العلماء الذين توفوا قريبا وهو كتاب على نحو الكتاب المتقدم إلا أن لكل واحد من الكتابين ميزات تجعل الآخر لا يغني عنه، وهو مطبوع في جزئين كبيرين الأول للجريمة، والثاني للعقوبة.

(ج) المدخل الفقه العام: لفضيلة الأستاذ مصطفى الزرقاء من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في جزئين كبيرين عرض فيهما المؤلف الفقه الاسلامي في أسسه العامة ونظرياته الكلية على نحو جديد مبدع، أفاد منه الطلاب والعلماء فوائد جمة، حتى أن بعضهم قال: لو لم يكن له غيره لكفاه، وهو كتاب لا يستغني عنه طالب الشريعة والحقوق معا.

(د) مدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الاسلامي: لفضيلة الأستاذ الزرقاء نفسه، وهو على نمط الكتاب الأول ويعتبر جزءا ثالثا له.

(هـ) فصول من الفقه الاسلامي العام:

لفضيلة الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله من العلماء المعاصرين. وهو كتاب جامعي مؤلف لطلاب السنة النهائية في كلية الشريعة، يضم فصولا متعددة من الفقه الاسلامي، وهو مطبوع في مجلد كبير، نحا فيه مؤلفه منحى الفقه الاسلامي المقارن، حيث أنه يعرض فيه المذاهب الفقهية ويناقشها ويحلل أدلتها.

(و) نظرية الضرورة: لفضيلة الدكتور الشيخ وهبه الزحيلي من العلماء المعاصرين وهو كتاب قيم في بابه مطبوع في مجلد متوسط يعالج فيه مؤلفه نظرية الضرورة معالجة مقارنة بين الفقه الاسلامي والقوانين الموضعية.

٤ ـ أصول الفقه:

(أ) مذكرات في أصول الفقه: لفضيلة الشيخ أبي النور زهير من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء متوسطة تضم مختلف أبواب هذا العلم، وهو عبارة عن اختصار واختزال لبعض كتب المتقدمين في هذا الفن.

(ب) أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد الخضري وقد توفي منذ سنين قليلة، وهو كتاب قيم جدا ينحو فيه مؤلفه منحى علماء السلف في تبويب وشرح فنون هذا العلم بعبارة فيها وضوح وسهولة. وهو مطبوع في مجلد متوسط.

(ج) أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة، وهو مطبوع في جزء متوسط، وقد حلق فيه مؤلفه في دراسة وتوضيح بعض النقاط على نحو فريد.

(د) علم أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد شاكر الحنبلي وهو من الذين توفوا أخيرا وهو مطبوع في مجلد متوسط جامع لأكثر أبواب هذا العلم بترتيب مدرسي سهل.

(هـ) ضوابط المصلحة لفضيلة الدكتور الشيخ سعد رمضان البوطي من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في مجلد يبحث في المصلحة المرسلة ويفند أنواعها وأقسامها على طريقة مقارنة مستوعبة.

٥ ـ في علوم العربية:

(أ) المعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو مطبوع.



□ الشيخ محمد عبده.

(ب) في أصول النحو: لفضيلة الأستاذ سعيد الأفغاني من العلماء المعاصرين، عرض فيه لأمهات مسائل النحو، كالاحتجاج في اللغة، والقياس، والاشتقاق، والخلاف بين النحاة بأسلوب علمي مبسط. وهو مطبوع.

(ج) الموجز في قواعد اللغة العربية: لفضيلة الأستاذ الأفغاني أيضا، وهو كتاب جامع لقواعد النحو والصرف والاملاء بأسلوب سهل واضح مبسط معتمد على الأقوال الراجحة، بعيد عن الخلافات النحوية التي كثيرا ما يشتبه أمرها على الطلاب فيضيعوا في متاهاتها. وهو مطبوع.

(د) جامع الدروس العربية: لفضيلة الشيخ مصطفى بن محمد الغلاييني المتوفي سنة ١٣٦٤هـ. وهو كتاب جامع لقواعد النحو والصرف والاملاء أيضا بأسلوب مدرسي مبسط ومطبوع في ثلاثة أجزاء.

(هـ) فقه اللغة: لفضيلة الأستاذ محمد المبارك من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في جزء متوسط.

(و) البلاغة تطور وتاريخ: لفضيلة الدكتور شوقي ضيف وهو من أجمع ما صنف حديثا في هذا الفن. ومطبوع.

الهوامش

(١) الآية (٣٦) من سورة الأحزاب.
(٢) الآية (٣ ـ ٤) من سورة النجم.
(٣) الآية (٣) من سورة المائدة.

الطرق التجارية في العصور الوسطى[1]

سلع ومتاجر[7]

د. نقولا زيادة

تحدث د. نقولا زيادة في المقال السابق (العدد ٦٢ ـــ ٦٣) عن اربع من السلع التجارية الهامة وهي ـــ الملح والتوابل والاخشاب والبن.
وفي هذا المقال يتناول اربعا اخرى من السلع التجارية الرئيسية وهي: البخور والذهب والحرير والرقيق.

٥ ـــ البخـور



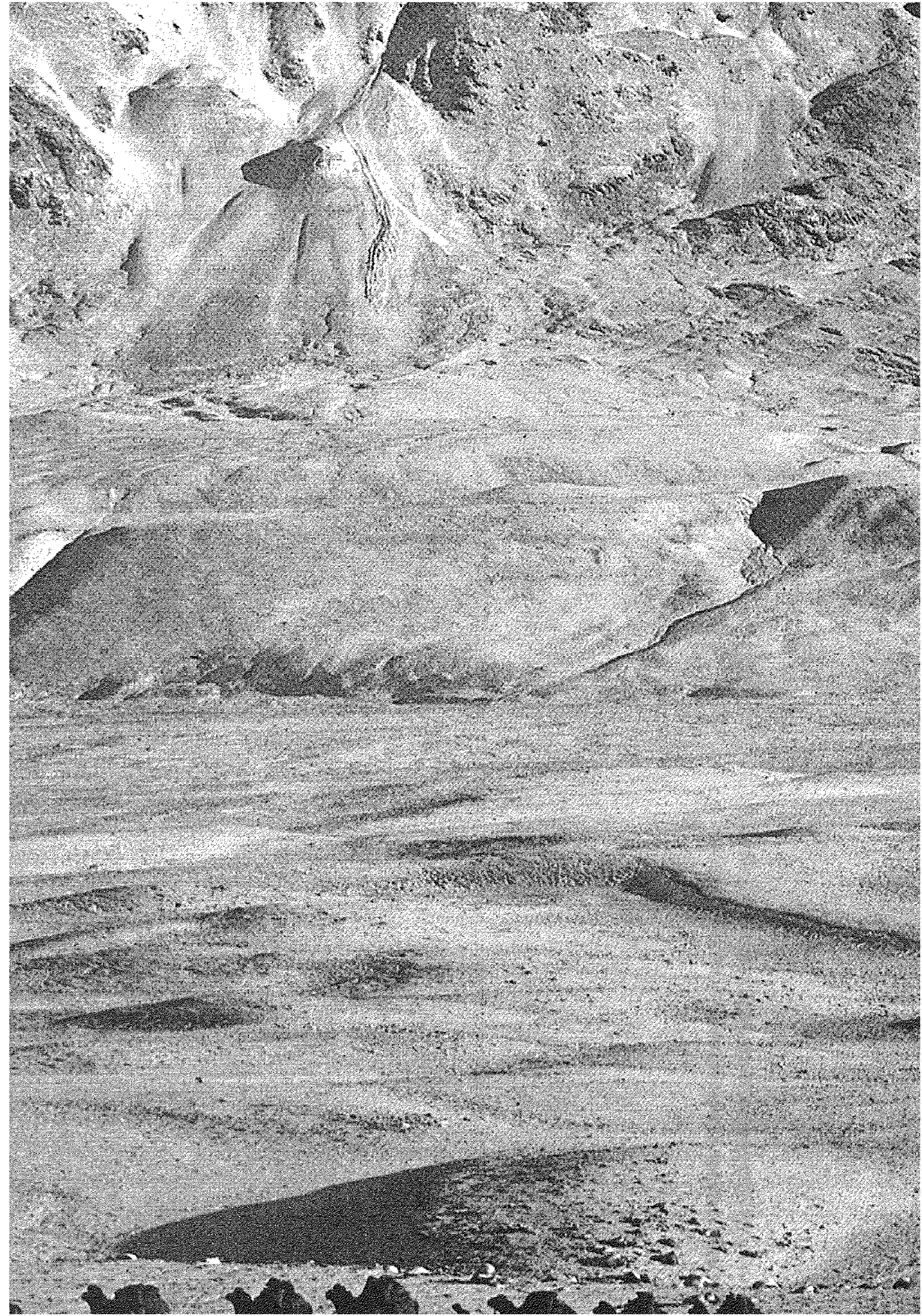
لسنا ندري متى بدأ الانسان يحرق البخـور في معـابـده وهيـاكله. وكـل ما استطاع الباحثون أن يتأكدوا منه هو ان هياكل مصر كان البخور يحرق فيها منذ حـول سنة ٣٠٠٠ق.م. ولسنـا نحسب إلا أن هياكل بابل وفينيقيـة وفلسطين كـانت تعاصر الهياكل المصرية في استعمال البخور. ومن الثابت انه لم يكن ثمة هيكل في العالم القديم لم يحرق فيه البخور. وقـد أخرج تـارن أن الهيكل في القدس كانت فيه غرف مخصصة لخزن البخور. ونعرف ان هيكل أمون تلقى في سنة واحدة في القرن الثاني عشر ق.م. ما يعادل ٢,٢٠٠ جرة و ٣٠٠ ميكـال من البخور. وكـان كهنة بـابل يحرقون ألف وزنة من البخور في السنة الواحدة. ولما نظم دارا الكبير امبراطوريته طلب من التجار العرب أن يقدموا له الف وزنة من البخور في السنة بدل ما يترتب عليهم من العشور. وقد ارسل الاسكندر الكبير خمسمئة وزنة من البخور من غزة وحدها هدية إلى معلميه. إلى هذا كله يجب أن نضيف ما كان يستهلك من البخور في البيوت والحفلات الخاصة.

ويبدو، على ما ارتأى رتينـز أن الأصل في استعمال البخور هـو للبركـة من جهة ولطرد الأرواح الشريرة من جهة أخرى. ومن هنا كانت شجرة البخور تعتبر شجرة مقدسة. وقد كان استخراج عصيرها، لتجفيفه وبيعه، حكرا على رجال من أسر معينة. وكان استخراج العصير ترافقه طقوس دينية خاصة، لأن القوم كانوا يعتبرون ان الرجل كان ينتزع دم الحياة من حي له صفة الهية.

وقد كانت المصادر التي يحصل منها القدماء على ما يحتاجون من البخور هي: جنوب شبه جزيرة العرب الممتد من حضرموت إلى ظفار، ومنطقة في شرق إفريقية تمتد من الصومال إلى رأس غودفروا؛ والهند. وكان أجود انواع البخور وأغلاها قيمة هو الذي يأتي من جنوب شبـه الجزيرة والمعروف باللبان. وكان المر، وهو صنف من أصناف البخور، تنمو أشجاره في المناطق المحيطة بالبحر الأحمر في الجزء الجنوبـي منه. إلا ان المر لم يبلغ درجة البخور الأصلي في نظر الناس.

وكان وصول البخور، أما من بـلاد العرب نفسها أو من الصومال وجوارها أو من الهند وما إليها، بالنسبة إلى مصر وبابل وبقية البلاد

□ نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درّس في الكلية العربية في القدس، وعمل استاذ للتاريخ العربي في الجامعة الاميركية ربع قرن وله من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة، ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت، ١٩٦٢).
وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية (لارنولد توينبـي، بيروت، ١٩٨١ ـــ ١٩٨٢).



المجاورة، يتم على أيدي التجار العرب فقط، وعبر الأجزاء الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة. أما البحر الأحمر فلم يدخل السباق إلا في القرون السابقة للميلاد. وسبب ذلك هو ان القوارب الصغيرة التي كان الانسان القديم يستعملها ما كانت تصلح للشواطىء الصخرية والمرجانية الخطرة المحيطة بالبحر. لذلك فانه يتحتم علينا أن نتعرف إلى الطرق البرية التي كان البخور ينقل عليها من حضر موت، حيث كان يجمع هناك أو يحمل من الأماكن الأخرى إليها.

ونحن نستطيع ان نجد ثلاثة طرق يبدأ كل منها في حضرموت، وتلتقي جميعها في مأرب. وهذه هي أقدم طرق البخور المعروفة. ومن مأرب يتجه الطريق شمالا إلى الجوف فنجران فَطَرَبَة فالطايف. وحري بالذكر ان كلا من هذه المحطات هي واحة أو مجتمع مياه. والا لما كانت تصلح مراكز للتجارة، كائنة ما كانت المتاجر المحمولة. فإذا انتقلت القوافل إلى مكة كان عليها أن تريح زمنا، وأن تبدل الحيوانات والرجال. ذلك ان المنطقة الواقعة إلى الشمال من مكة كان يصعب اجتيازها على أهل الجنوب. وبعد ذلك كانت القوافل تنتقل من مكة إلى يثرب أو المدينة مغربة نحو المنطقة الساحلية كي تتجنب المنطقة الجافة الصعبة بين المدينتين. ومن يثرب أو المدينة كانت القوافل تتجه إلى العلا وهي ديدان القديمة ثم إلى البتراء. ومن هذه المدينة — الواحة — المتجر كان الطريق يتشعب إلى فرعين: واحد يتجه إلى غزة ومنها إلى مصر، وآخر يذهب إلى دمشق ومنها عبر تدمر ودورا (الصالحية) إلى بلاد ما بين النهرين.

وهذا هو الطريق الذي كان البخور ينقل عبره حتى يصل إلى بابل القديمة. وهو، كما نرى، طريق طويل جدا. ولكن كان هذا ضروريا، إذ ان حيوان النقل الذي كان يستعمل في الأزمنة الأولى كان الحمار. وهذا لا يستطيع اجتياز المناطق الصحراوية الجافة. فلما دخل الجمل إلى بلاد العرب، وكان ذلك في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، تبدلت الطرق بعض الشيء. ذلك بان الجمل هو حيوان الصحراء الممتاز فهو الذي يستطيع تحمل العطش والجوع. والتبديل الرئيسي الذي طرأ على تجارة البخور هو ان القوافل أخذت تتجه من نجران شمالا في شرق عبر وادي الدواسر وواحات الافلاج والخرج واليمامة إلى بلاد البحرين على الخليج العربي. ومن الاحساء (الحسا) كانت تسير الطريق شمالا إلى العراق. وبذلك قصرت المسافة التي كان يقطعها تجار البخور في نقله من حضرموت إلى أرض الرافدين. وكان ثمة تغيير آخر وهو ان القوافل اصبحت تنتقل من مكة إلى يثرب او المدينة رأسا، أيضا لأن الجمل كان يتحمل الأحوال المناخية الصعبة.

وقد جرب المصريون الحصول على البخور من أصقاع اليمن رأسا عن طريق البحر الأحمر حتى في الألف الثالث قبل الميلاد، لكنهم لم يوفقوا بسبب صعوبة الشواطىء هناك. وقد جربت الملكة حتشبوت ذلك ثانية في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وتم لها ذلك. إلا ان اضطراب شؤون مصر فيما بعد أوقف هذه الحملات البحرية إلى بلاد بونت، كما كان المصريون القدامى يسمون المنطقة المحيطة بجنوب البحر الأحمر ومخارجه إلى المحيط الهندي.

لكن لما استقر الأمر للبطالمة في مصر ونظموا شؤونها أنشأوا أسطولا في البحر الأحمر. وبذلك نشطت التجارة كثيرا، وقامت المنشات التجارية هناك. وصارت بضائع الصومال وجزيرة سوقطري وجنوب شبه الجزيرة تنقل بحرا إلى برنيتشي على البحر الأحمر وغيرها. ولكن ضعف البطالمة فيما بعد أضعف التجارة، وكثر القرصان في البحر الأحمر. وعاد إلى الطريق البري ازدهاره.

وأخيرا احتل الرومان مصر وأعاد اغسطوس قيصر السلم إلى العالم الروماني، وأدرك قيمة البحر الأحمر التجارية، فأرسل حملة إلى بلاد العرب بقصد احتلال اليمن للسيطرة على المركز الرئيسي للتجارة هناك. فقد أصدر أمره إلى غالوس، القائد العام للوحدات الرومانية في مصر، ان يسير بعشرة آلاف جندي. وطلب من الأنباط ان يمدوه ببعض الجنود وأن يقوموا بمهمة التموين والارشاد.

قامت الحملة من ارزينوى التي كانت على مقربة من مدينة السويس الحديثة. ونقل الجنود عبر البحر الأحمر إلى لوكي كومي (الحوراء



□ كان البخور المستورد من جنوب جزيرة العرب يستعمل بكثرة في الطقوس الدينية في العالم القديم. تمثل الصورة جرح شجرة البخور كي تتحلب عصارتها فتجمد وتصبح اللبان او اطر كما المستعمل لما ذكر. (الصورة من محفورة من سنة ١٥٧٥).

أو القرية البيضاء) الواقعة على مقربة من ينبع. ومن هناك بدأت الحملة البرية إلى مأرب قاطعة مسافة تقرب من الفين وخمسمئة كيلومتر. بدأت الحملة في ربيع سنة ٢٤ قبل الميلاد، ووصلت بعد صعوبات كثيرة إلى نجران، فحاصرتها واحتلتها، والتقت جيشا عربيا إلى الجنوب من هذه المدينة وانتصرت عليه. ومع ان الرومان انتصروا في معارك صغيرة أخرى، فانهم اضطروا أخيرا إلى الانسحاب، فارتدوا على اعقابهم دون أن يصلوا إلى مأرب. دامت الحملة ستة شهور، وانتهت بالفشل.

إلا ان التجارة في البحر الأحمر في أيام اغسطوس كانت مزدهرة. فقد ذكر سترابو ان مئة وعشرين سفينة سافرت في سنة واحدة إلى الهند من ميوس هرموس على البحر الأحمر. على انه يجب أن نذكر ان التجارة خارج البحر الأحمر ظلت، لقرون طويلة تلت، حكرا على العرب. وظلت تجارة البخور في أيديهم. وكل ما يمكن أن يضاف هنا ان الاهتداء إلى مواعيد هبوب الرياح الموسمية سهل على العرب التجارة مع الهند، وزاد الكميات المنقولة من تلك البلاد من المتاجر المختلفة، وظل البخور مع التوابل في مقدمة ما يحمل من هناك.

٦ ـ الذهب

للذهب، في حياة الانسان، منزلة خاصة. ذلك انه معدن لا يتأثر بالعوامل المختلفة التي تؤثر في غيره من المعادن. ومن ثم فانه يحتل مكانا خاصا سواء أكان ذلك المكان خزائن المثرين أم صدور الحسناوات، وجيوب المقامرين أم زنود الجميلات. والذهب يوجد في مناطق متعددة من الدنيا. فقد استخرج الذهب، ولا يزال يستخرج أحيانا، في هنغاريا واسبانية وفي أكثر البلاد الآسيوية والافريقية وفي أميركا الشمالية. ومع ذلك فإن الكمية التي استخرجت منه إلى اخر القرن التاسع عشر لم تتجاوز عشرين ألفا من الأطنان، حسب تقدير العارفين.

وقد كان البحث عن الذهب والسعي وراءه ظاهرة من ظواهر المجتمعات المتمدنة منذ فجر التاريخ المدوّن. ففي العصور القديمة كان الذهب يحصل عليه غالبا من اسية الصغرى وسيبيريا والتبت، ولو ان مصر العليا عرفت أيضا باستخراج الذهب. ولنذكر بعض الأرقام للتدليل على الكميات التي كانت المجتمعات المختلفة تحاول خزنها من الذهب «لما استولى الاسكندر الكبير على اكبتانا [همذان] وجد في خزائنها ما يساوي مئتي مليون دولار من المعادن الثمينة. أما برسيبوليس عاصمة الامبراطورية الفارسية فقد حصل الاسكندر منها على ما قيمته مئة وخمسة وثلاثون مليونا من الدولارات. وقد كانت ثروة البطالمة في مصر تقدر بنحو تسعمئة مليون دولار».

في إبان ازدهار الامبراطورية الرومانية كان الاقبال على المتاجر المستوردة من الأقطار الشرقية النائية كبيراً، وأهم هذه كانت المجوهرات والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور. وكانت الامبراطورية تدفع ثمن هذه الأشياء كلها بالذهب أو الفضة. وقد كانت التجارة واسعة بحيث إن الذهب كاد أن ينعدم في الامبراطورية في القرن الثالث للميلاد. وكان ذلك واحدا من الأسباب الرئيسية للاضطراب الذي عانته

الامبـراطوريـة، والذي ادى في النهـايـة إلى سقوطها. فقد قدر جـاكوب في كتـابه **تـاريخ المعادن الثمينة** ان الذهب الذي كان في نطاق الامبراطورية في أيام أغسطوس قدر بنحو ألف وثمانمئة مليون دولار، فانخفض إلى الربع بعد اقل من أربعة قرون!

وفي العصور المتوسطة كانت المناجم تغل قليلا من الذهب، بحيث ان المستخرج كان بالكاد أن يكفي الحاجات القليلة نسبيا. وهذه الحاجات كانت، على الأقل من أوروبة، قليلة إذ ان المجتمع كان اقطاعيا زراعيا. لكن اكتشاف العالم الجديد والاهتداء إلى ذهبه في القرن السادس عشر أدى إلى انتقال كميات كبيرة من الذهب إلى أوروبة في أوائل العصور الحديثة. وفي هذه الفترة دخلت افريقية أيضاً ميدان استخراج الذهب بكميات كبيرة.

وفي عهـد ازدهار الامبـراطوريـة العـربيـة الاسلامية كان الذهب يأتي، في الغـالب، من أجزائها الغربية. فقد كان ثمة مركزان رئيسيان للتبر الواحد حول العلاقي التي تقع شرقي النيل بـين أسـوان وعيـذاب والثـاني في السـودان الغربـي. وقد نقل اليعقوبـي أخبار العلاقي في **كتاب البلدان** فقال ما خلاصته: هذه المنطقة هي معادن التبر. وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادي العلاقي معادن للتبر، يعتمل فيه الناس ولكل قوم، من التجار وغير التجار، عبيد يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يسبك. وينقل التبر إلى عيذاب حيث يأتي التجار فينقلونه إلى أسواق الدولة الاسلامية.

اما المركز الثاني للتبر فهو السودان الغربـي. ويقول الادريسي ان السودان ويقصد ما نسميه نحن السودان الغربـي، بلاد التبر وانه اكبر غلة عند السودان وعليه يعول صغيرهم وكبيرهم. وكانت القوافل التي تجتاز الصحراء الكبرى آتية من الجنوب تحمل الذهب وتعود محملة بالملح.

وقد استمر السودان الغربـي مصدرا للذهب حتى العصور الحديثة. وكان الطريق الرئيسي لتجارة الذهب من سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى إلى مـالي في غرب افـريقية عن طريق ايوالاتن أو ولّاطو. وكان السفر من سجلماسة إلى ولاطة، على رواية ابن بطوطة، يحتاج إلى شهرين عبر الصحراء. ومن ولاطة إلى مالي كانت القوافل تجتاز المسافة في شهر وبعض الشهر. إلا ان هذا الجزء من الطريق لم يكن صحراويا تماما. وكان أهل مالي يحملون تبرهم إلى ولاطة دون أن يسمحوا لأحد بالاطلاع على مصدره!

وقد جرب الكثيرون، عبر قرون طويلة، أن يكتشفوا مصدر التبر السوداني، لكن محاولاتهم لم تنجح، وظل الأمر سرا نحو ألفي سنة، أي إلى القرن التاسع عشر. وكان كل ما عرف، من أيام القدامى حتى أيام الادريسي، وبعده، هو ان تجار الذهب هم أهل ونغرة؛ ولكن أين تقع ونغرة.

وحري بالذكر ان الاتجار بالذهب كان يسمى التجارة الصامتة. فقد روي أن تجاره هناك كانوا ينقلونه إلى المكان الذي يقبل عليه تجار الملح لمبادلته بالتبر. فيضع التجار الملح على شاطىء النهر ثم ينسحبون بحيث لا يرون، وعندها يقبل تجار التبر فيضعون منه ما يعتقدون انه يساوي الملح ويختفون أيضا. ويعود تجار الملح فـان اعجبتهم الكميـة أخذوا الذهب وتـركوا الملح، والا أظهروا عدم رضاهم بالاختفاء ثانية. وعندها يزيد تجار الذهب الكمية حتى يـرضى أولئك. وهكذا فإن تجار البضاعتين لا يلتقون قط. وبهذه المناسبة فقد روي أيضا ان تجار الحرير في أواسـط اسية كـانوا يبيعـون حريـرهم بهذه الطريقة. ومع ان الرواية تبدو صحيحة، فإن غرابتها تغلب على احتمال كونها حقيقية.

في أواخر القرن السادس عشر كان يتـولى شؤون المغرب الأقصى السلطان المنصور. وقد رغب هذا في الاستيلاء على مملكة سنغي القائمة حول تمبكتو على نهر النيجر، اعتقادا منه انها كانت مصدر الذهب. فجهز حملة كبيرة مؤلفة من نحو أربعة الاف مقاتل مجهزة بالبنادق والمدافع ومعها ثمانية الاف من الابل وألف من الخيل. وقـد خرجت الحملة من مـدينة مـراكش عام ٩٩٨/١٥٩٠ واجتازت المسافة إلى كبرا، وهي نيف وألفان من الكيلومترات، في مئة وخمسة وثلاثين يوما، بما في ذلك أيام الاراحة.

واستـطاعت الحملة أن تنجـح في مهمتهـا فاحتلت تمبكتو وغوا عاصمة مملكة سُنغي. وقد روى اليفرني في **نزهة الحادي** انه لما فتح على

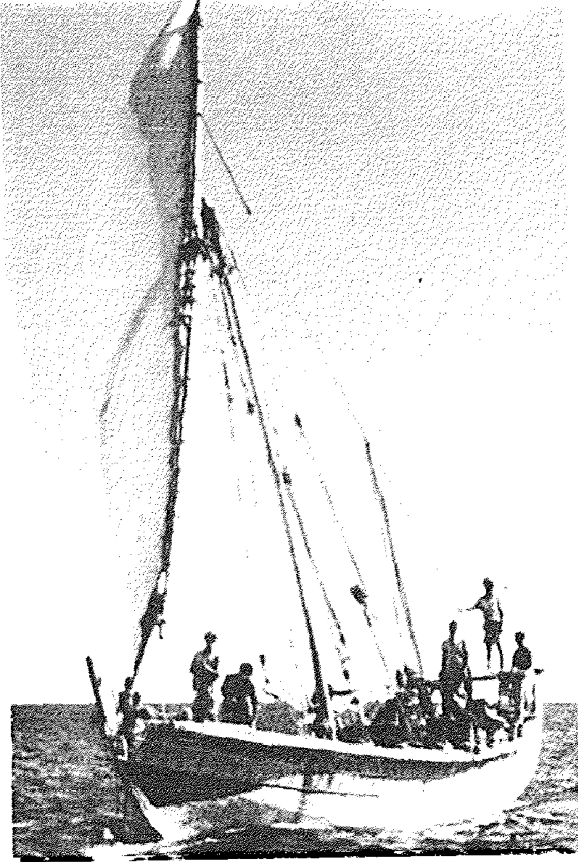
المنصور الممالك السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي. وكانت ببابه كل يوم مطارق كثيرة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي. وبسبب هذه الكميات الكبيرة من الذهب التي وصلت إلى البلاط المغربي سمي المنصور «الذهبي».

ويبدو ان الراي الذي ساد بلاط المنصور هو ان معادن الذهب تقع في الأقطار السودانية التي وجهت الحملة إليها. لذلك بعد أن أصاب القواد النصر، كان المنصور ينتظر أن يتبعوا ذلك بالوصول إلى التبر ومصادره. لكن ذلك لم يتم لأحد، لأن مصادر التبر لم تكن هناك، وانما كانت إلى الغرب منها في ونفرة. والواقع ان الجيش المغربي استولى على الأسواق التي كان التبر ينقل إليها، اما مصادره فقد ظلت مجهولة. والذهب الذي حمل إلى بلاط المنصور لم يزد على ما كان يمر بالأقطار السودانية قبلا. والفرق هو ان التبر كان من قبل يأتي ثمن ملح ومتاع ومتاجر، فأصبح الآن يصادر باسم السلطان.

وظلت مصادر التبر في ونفرة مجهولة إلى القرن التاسع عشر، إذ ثبت انها مالي وهي البلاد التي ورد ذكرها عند الجغرافيين والمؤرخين الاسلاميين وهي جزء من غانة الحديثة وجوارها الشرقي.

٧ ــ الحرير

الحرير صيني الأصل، وقد عرف هناك منذ الأزمنة المتوغلة في القدم. على أن أقدم نص صيني عن الحرير يعود إلى نيف وثلاثة آلاف سنة، أي إلى القرن الثاني عشر ق. م. وقد ظل الحرير مدة طويلة وقفا أو حكرا على القصور الملكية وكبار رجال الدولة وأمراء الدويلات والأثرياء وكبار رجال المجتمع. ويبدو، بحسب ما لدينا من النصوص، أن الحرير الصيني لم يصل حتى أواسط آسية نفسها إلا في سنة ١١٥ ق.م. لما فتح شانغ كيان طريق القوافل المتجهة من الصين غربا. وبعد ذلك بمدة قصيرة وصل الحرير إلى دولة الفرثيين، وعرف في ديار الشام ومصر في القرن الأول ق.م. وهذا هو



□ كان الزورق، ولا يزال، الوسيلة الرئيسية للتنقل.

الوقت الذي كان الرومان فيه يحتلون هذه البلاد، فتلقفوا تجارة الحرير واستعماله مع ما اخذوه من المشرق.

وكان الحرير المادة الرئيسية في الاتجار بين العالم الروماني والصين، إذ كان ذلك يكون تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها.

والطريق الذي كان تجار الحرير يسلكونه برا كان يبدأ عند سلوقية أو المدائن (كتيسيفون) وهما على دجلة، ويتجه شرقا مارا بجبال زغروس إلى اكبتانا (همذان) ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر، ثم يجتاز تركستان وحوض تاريم حتى يصل منطقة هيسيان ــ فو وهي بلاد الحرير. إلا أن هذا الطريق كان يمتنع على القوافل أحيانا إذا كانت الدولة القائمة في بلاد ايران على خصومة مع الشرق أو الغرب. فيقل الاتجار عندها على هذا الطريق، ويعتمد التجار الطريق البحري عن طريق الهند إلى البحر الأحمر فمصر أو الخليج العربي إلى ما بين النهرين.

فإذا وصل الحرير سلوقية نقل إلى صور وصيدا وانطاكية والاسكندرية. وفي الموانىء



□ هذا الحرير الذي كان ينقل من الصين خيوطا كان ينتهي به الأمر أن يصبح ثيابا انيقة تزين اجساد السيدات، فتكسبهن جمالا فوق جمالهن (من القرن السادس عشر) من كتاب: (La Route de la Soie; L. Boulnois).

الفينيقية كان يعالج بالأصبغة المختلفة، واشهرها الأرجوان، وعندها يصبح لباس الأباطرة وفيما بعد لباس كبار رجال الكنيسة. وحرى بالذكر أن تدمر والبتراء وحران كانت مراكز هامة لقوافل الحرير.

وقد أخرج الأمير موريس شهاب أنه في حول سنة ٣٠٠ للميلاد كانت الليبرة الواحدة (أي حول نصف كيلو) من الحرير الخام تباع في البلاد الفينيقية بنحو ٧٥٠ فرنكاً من الذهب. فإذا نسجت وصبغت بالأرجوان اصبح ثمنها ما يقرب من مئة ألف من الفرنكات.

وظل إنتاج الحرير حكرا على الصين، والاتجار به خاضعا لمن يتولى شؤون ايران إلى أواسط القرن السادس للميلاد. ففي سنة ٥٥٣ حمل راهبان بعض بذور القز في جوف عصيهما خفية إلى شرق البحر المتوسط. وعندها باشرت تلك المنطقة بانتاج الحرير. وفي ذلك القرن انتشرت صناعة الحرير في لبنـان بسبب جودة المنـاخ لزراعة التوت وحفـظ الشرانق صيفـا ومهارة الصناع في خدمة الحرير نسجا وصباغة.

وكان للفتح العربي في القرن السابع للميلاد اثر أي أثر في انتعاش صناعة الحرير والاتجار به. فمن الجهة الواحدة وقعت بلاد انتاج الحرير الأسيوية، أي ايران وسورية ولبنان تحت نفوذ دولة واحدة، امتدت غربا إلى الأندلس، فزالت القيود التي كانت تحول دون التجارة الحرة حيث كانت. ومن الجهة الثانية كان ثمة ثروة ضخمة تتجمع في بلاط الخلفاء أولا ثم في بلاطات أمراء الأطراف. وهؤلاء كلهم كانوا ينفقون الكثير على الكماليات ومنها الحرير الذي لم يكتف الناس به ثيابا الآن، بل استعملوه سجوفا وغلائل ومفارش وأغطية ووسائد وحتى بسطا.

والأهم من المتـاجرة بـالحـريـر من شـرق الامبراطورية العربية إلى غـربها كـان انتشار انتاجه. يقول: الأمير موريس شهاب في ذلك.

«سارت الجيوش الاسلامية في فتحهـا نحو الغرب وزرع اللبنانيون والسوريون على طريق الفتح أسماء مدن أوطانهم كطرابلس وصيـدا وقرطبا وما شاكلها. ونمت في مراحل الفتح تربية دود الحرير ومصـانع حيـاكته. ووجـدت هذه الصناعات في جنـوب الأندلس ارضـا خصبة فنشـأت فيها وازدهـرت وما مضى القـرن إلا وأصبحت مدينة ألميرية من أنشط المدن في هذا الحقـل وكانت الأنـوال الدائرة فيهـا تتعـدى الثمانماية. وبلغ عدد الأماكن التي تتعاطى تربية دود القـز في الأندلس الثـلاثمايـة وما فـوق. ولم تكتف دولة غرناطة بإنتاج ما يلزم صناعاتها من حـريـر بـل أصبحت تصدره إلى الأقـطار الأخرى. ونزل العرب جزيرة صقيلية فـألحق امراؤهم بقصورهم الطرازات النشيطة الكثيرة الإنتاج».

إلا أن الصين ظلت، مع ذلك، تصدر الحرير غربا. وقد كان للحرير الصيني منزلة خاصة في خزائن الثياب في القصور، الملكية منهـا وغير الملكية. وظل الطريق البري القـديم هو الذي يستعمل. ويعدد الأستاذ برتولد شبولر المراكز الرئيسية على هـذا الطريق، بدءا من بغـداد، إذ يتجه الطريق إلى ايران عبر جبال زغروس ثم يمر بهمذان والري ودامغـان ونيشابـور ومرو الشاهجان وآمل. ويجتاز الطريق بعدها بـلاد ما وراء النهر عبـر بخارى وسمـرقند ووادي فرغانة وأزغند. وكل هذه الأماكن كانت داخل الامبراطورية الاسلامية. أما خارج هذه فكان الطريق يخترق جبال تينشان وحوض تاريم إلى واحة ترفان.

وكما كان الطريق البحري يستعمل من قبل، كان يستعمل في العصور الوسطى أيضا. وكانت البصرة وسيراف ثم جزيرة قيس (كيش) وهرمز فيما تلا ذلك من العصور أهم الموانىء في الخليج العـربي. وعلى البحـر الأحمر كـانت القُصَـيْرْ والسويس مركزين هامين في مصر.

وحرى بالذكر أن الحريـر أخذ، في أواخـر العصور الوسطى، يتجه من الغرب إلى الشرق. ونختم هذا العرض الموجز ببعض ما ذكره الأمير مـوريس شهاب عن نسيـج الحريـر في بعض الأقطار الشرقية.

«وفي القرن الثاني عشر أعجب الادريسي بما شهده في انطاكية من حرير مموِّج أو مقصَّب وكانت هذه الحرائر مثل حرائر طرسوس مقصبة في شدتها بخيوط من الذهب أو الفضة. وعندما دخل السلطان قلاوون مدينة طرابلس لم تكن لتعد أقل من أربعة آلاف نول. ولم تكن هذه



□ هذه الصورة هي لقطعة من القماش الحريري تعود صناعتها إلى العصر العباسي، وتظهر الجمل ذا السنامين. من كتاب (La Route de la Soie; L. Boulnois).

المدن تتاجر بما تنسجه انوالها فحسب بل تأتي ايضا بالحرائر من البلاد البعيدة كالعجم او الصين. وكان اقبال الغربيين في أكثر الأحيان أكبر على النسائج اللبنانية والسورية لما فيها من جودة ولأن اثمانها دون أثمان ما يؤتى به من اواسط آسيا او اقاصيها».

«كان الحجاج الجنويون يعودون من الأراضي المقدسة حاملين النسائج والحرائر والطلب يتكاثر على هذه النسائج فتضطر مراكب البندقية إلى المكوث طويلا في مرفأ صور بانتظار الفراغ من تجهيزها».

«وبعدما كانت الحرائر الشرقية محصورة الاستعمال في تزيين المذابح وجدران الكنائس انتشر تذوقها في قصور الأمراء والفرسان وبيوت أصحاب الثروات، وتسربل الأمراء والفرسان والأشراف ونساؤهم وبناتهم بالألبسة الحريرية يخرجون من دورهم مرتدين إياها بينما الأكليروس وحده ارتداها فيما سبق في الحفلات الدينية. والبست المعابد الخاصة بالحلل الحريرية وصنعت من الحرير الأعلام وأغشية الأسرة وازدانت الخيام بالحرائر وتدلت من الشرفات سجادا ونسائج. وغذّت هذه العادات والحفلات الحاجة إلى الحرائر فنشط طلبها من الشرق نشاطا كبيرا. لكن مهاجمة المغول لصيدا وفتح السلطان قلاوون لطرابلس وتدمير الأشرف خليل لصور وما جرى من حروب في لبنان في أواخر القرن الثالث عشر حد من هذا النشاط وأوشك أن يأتي عليه».

٨ ــ الرقيق

كان الرقيق، حتى القرن التاسع عشر، جزءا أساسيا من حياة المجتمعات البشرية، بحيث يكاد يكون من المستحيل أن تعرف جماعة بشرية لم يكن بين أفرادها أرقاء. ولعل ما يميز مجتمعا عن آخر يكمن في الأسلوب الذي كانت الجماعة تعامل فيه الرقيق، من حيث الحدب عليهم أو تشجيعهم على الانعتاق أو تشجيع الأسياد على عتق الرقيق. ونحن إذا استعرضنا هذه القضية وجدنا أن الرقيق كان يستعمل في خدمة البيوت وفي المصانع على صغرها وفي المزارع أحيانا. وفي بلاد اليونان القديمة كان الكثيرون من المعلمين والمؤدبين من الأرقاء. وثمة مجتمعات استخدمت الرقيق في الجند الخاص بصاحب السلطان على نحو ما صنع العباسيون بالرقيق التركي والمولى اسماعيل المغربي بالرقيق الأفريقي. بل أن المماليك الذين حكموا مصر



□ تعتبر «المدينة» من المحطات الرئيسية للقوافل التجارية.

وديار الشام قرنين ونصف القرن كانوا كلهم، سلاطين ونوابا وزعماء جند واداريين، رقيقا ابتيع كل واحد منهم في سوق الرقيق.

والرقيق كان مصدره الأكبر أسرى الحرب، لكن حتى في المجتمعات غير الحربية كان يمكن الحصول على الرقيق في الأسواق. أما النخاسون، اي تجار الرقيق، فكانوا يحصلون على هذه السلعة بوسائل مختلفة. منها أن البعض كانوا يتصيدون الرقيق، وخاصة في أواسط أفريقية، ويحملونه إلى الأسواق. وكان بعض الآباء يبيعون ابناءهم لعجزهم عن اطعامهم. وقد عرفت المجتمعات القديمة الرقيق عن طريق بيع الشخص نفسه أو زوجه أو أولاده وفاء لدين عليه. فإذا كان الرقيق من هذا النوع الأخير كان معنى هذا أن العبيد كانوا من أهل البلد نفسه.

اما في الأحوال الأخرى فقد كان هؤلاء المسترقون ينقلون من بلد إلى بلد.

ففي بابل القديمة لم يكن أسرى الحرب ولا حتى الأرقاء من أهل البلد يكفون لسد حاجات الزراعة والصناعة والخدمة المنزلية. ومن ثم فقد كان التجار يستوردون الرقيق من الأقطار المجاورة والبعيدة. وقد درس مندلزون الرقيق في بلاد ما بين النهرين القديمة وخلص إلى نتائج هامة حول الموضوع. فمن ذلك أن تلك الحضارة القديمة عرفت رقيق الدولة، وهؤلاء كانوا أسرى الحرب؛ وكان هناك رقيق الهيكل وهم الذين كانوا يعملون في الأرض التابعة للهياكل ومصالحها الصناعية. هذا بالاضافة إلى العبيد الذين كانوا ملكا للأفراد طبعا. وقد توصل إلى أن العبد كان يساوي بين عشرة وخمسة عشر شاقلا من

الفضـة في أيام بـابل الأولى. امـا فـي أيام الكلدانيين والفرس فقد ارتفع ثمنه إلى ضعفي ذلك وأكثر. والرقيق الماهر كان يبلغ ثمنه نحو مئة شاقل من الفضة. وكان عدد العبيد في بيت من البيوت يتوقف على ثروة صاحبه. فقد كان ثمة من يملك مئة من الرقيق. إلا أن الأسر المتوسطة الثراء كانت تقتني بين اثنين وخمسة من العبيد.

وقد كان العالم اليوناني الروماني يستخدم الرقيق في مجالات مختلفة. فبالاضافة إلى ما ذكر كان العبيد يقومون بالأعمال الكتابية لأسيادهم، بل كثيرا ما كان هؤلاء يولونهم ادارة مصالحهم التجارية أو الصناعية. ذلك بأن الأحرار، خاصة في أثينا، ما كانوا يرغبون في الأعمال التي يطلب منهم فيها اطاعة الرؤساء المباشرين. وقد كان في اثينا، في القرن الرابع ق.م.، حسب تقدير جونز نحو عشرين ألفا من الرقيق. وكانت الكثرة من هؤلاء تعمل في مناجم الفضة في لوريوم. وكان ثمن العبد الواحد العادي، في ذلك الوقت، يتراوح بين ١٢٥ و ١٥٠ دراخمه. أما إذا كان العبد صَناع اليدين فقد يصل ثمنه إلى ستمئة دراخمة.

في أيـام الامـبـراطور أغسـطوس شـنت الامبراطورية الرومانية حروبا كثيرة في مناطق واسعة متباعدة، لذلك كثر الرقيق في الأسواق. إذ كان أسرى الحـرب من اسبانيـة وألمانيـة ومنطقة الألب الدينارية يباعون فيها. لكن انتهاء الحروب أدى إلى نقص في الوارد من الرقيق (ويبدو أنه في القرنين الأول والثاني للميلاد كان أكثر الرقيق من أقطار الامبراطورية نفسهـا). ومن هنا ارتفع السعر ارتفاعا كبيرا. فعندنا ما يدل على أن الرجل الحاذق كان ثمنه يصل إلى نحو سبعمئة دينـار، والمراة تسـاوي اربعمئة دينار، بينما دفع ثمن بنت في السادسة من عمرها مئتا دينار. وعادت الحروب إلى الامبراطورية في القـرن الثالث للميـلاد واختل الأمن في أكثـر اجزائها منذ ذلك الحين، لذلك عاد التجار إلى سرقة الرقيق أو خـطفهم. ومع ذلك فقـد ظل الطلب، خاصة في رومة، أكثر من العرض. وقد كانت جزيرة ديلوس احد أكبر أسواق الرقيق في شرق البحر المتوسط لقرون عديدة.

وقد كان للاسلام فضل كبير في تحسين أحوال الرقيق من حيث المعاملة والتشجيع على العتق. ولكن ظل الرقيق ملازما للمجتمعات المختلفة التي نشأت في اطار الدولة العربية الاسلامية. وقد اخرج متز أنه في القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي، «كانت في مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقية أسواق للرقيق الأسود. وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب. وكان الثمن الجاري للعبد حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة مئتي درهم. أما العبد الحاذق أو الفنان فقد يصل ثمنه إلى مئات الدنـانير. وقـد تشترى الجـارية بـألفـين من الدنانير».

وكـان ثمن العبيد البيض يـزيد عن ذلك، وخاصة حينما انقطع سيل الرقيق من الأندلس، وظل المصدر الوحيد هو أسواق بزنطية وأرمينية. وقـد كان الرقيق الأبيض يصـل إلى المملكـة الاسلامية في عز ازدهارها بن طرق ثلاثة. أولها الطريق الذي ينقل عليه العبيد من البلغار عند مصب نهر الفولغا، وكانت سوقهم الرئيسية في سمـرقنـد. والطريق الثـاني كـان طريق رقيق الصقالبة، من ألمانية إلى الأندلس ثم إلى الموانىء البحرية في ايطالية وفرنسة. وكان تجار الرقيق يدفعون ضرائب باهظة أثناء نقلهم الرقيق. ففي مدينة كوبلنز كان يدفع عن كل رأس ما يعادل أربعة دنانير. أما الطريق الثالث فكان يتجه من براغ إلى بولونيـة والروسيا، ومن هنـاك ينقل الرقيق إلى أجزاء المملكة الاسلامية الشرقية.

وكانت أقطار أفريقية الغربية تزود أسواق شمال أفريقية ومن ثم أسواق غيرها بالرقيق الأسود حقبة طويلة من الزمن. وكانت كومبي وغوا سوقين في الجنوب وسجلماسة سوقا في الشمال. وقد زار الحسن الوزان، المعروف بليون الأفريقي، حوض النيجر وكتب عن غوا، عاصمة مملكة سنغي، ما خلاصته: أن تجار السودان يذهبون إلى هذه المدينة ليختاروا ما يحتاجون إليه من الأقمشة الأوروبية التي كان يحملها إليها التجار المغاربة. والمدينة كانت غنية بالحبوب واللحوم، لكن الأشجار والفواكه فيها معدومة. وكانت سوق الرقيق فيها غنية، والأسعار مرتفعة. فالولد في سن الخامسة يباع بست دوقات. إلا انه يذكرنا دوما ان أغلى أنواع المتاجر هو الملح.

●

تاريخ بدء الزراعة

انسان العصر الحجري سعى إلى التجريب والاكتشاف كما يفعل اليوم

د . ابراهيم فريد الدّر

حصاد قديم على النيل



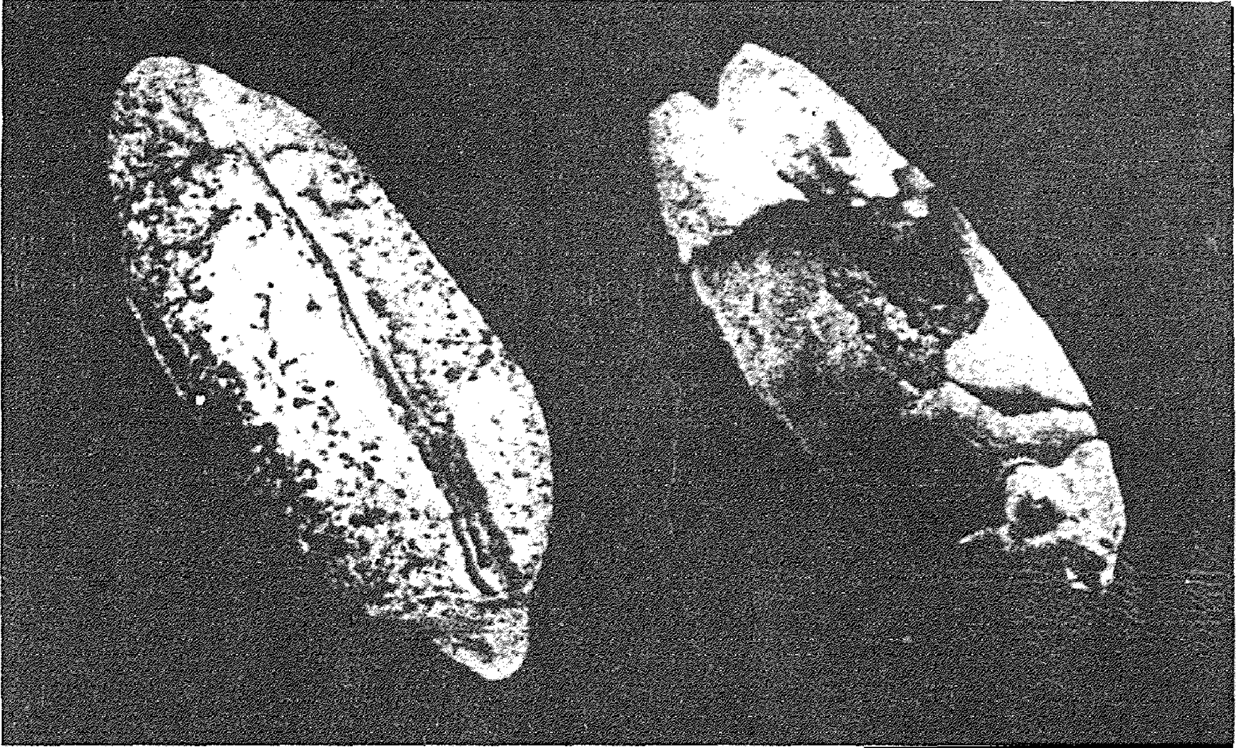
زرع المزارعون القمح والعدس والحمص والتمر والكبّار الشائك لثمانية الاف سنة قبل أن تأتي السجلات على ذكر بدء الزراعة.

كان ذلك فتح تاريخي جليل حين تحول الانسان الصياد إلى انسان فلاح. كان الانسان جوالا يجمع ما تيسر من حبوب ونبات ويصيد ما يسنح ثم استقر ليعالج الأرض ويبني المدن، فبدأت بذلك الحضارة الانسانية.

معلومات جديدة

ظن العلماء أولا ان الزراعة بدأت قبل ١٠,٠٠٠ سنة بعد انتهاء عصر الجليد الأخير. وكان البدء في غربي جنوب اسيا حيث تنمو اليوم أنواع من القمح البري والشعير. وظنوا ان ما دفع الانسان إلى الزراعة نقص الموارد البرية وارتفاع عدد السكان. لكن حفريات جديدة قام بها خبراء من جامعات ومؤسسات كثيرة غيرت كثيرا من الظنون. ظهرت نتائج البعثة العالمية أواخر ١٩٨٢ والمزيد منتظر.

□ د. ابراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الاميركية، بيروت.



□ حبة القمح (يمين) وحبة الشعير (شمال). وجد العلماء حبوب القمح والشعير في مقر للمزارعين من ١٧٠٠٠ سنة واكثر. الحبوب المكتشفة خشنة، منقطة بالأسود، وفيها شرم خشن عند نقطة التعلق بالساق، مما يدل على حبوب محصودة بعد زرعها. اما الحبوب البرية فهي ناعمة.

وادي الكُبَّانية

تدل الحفريات في وادي الكبانية، منطقة نائية ومعزولة في صحراء مصر الغربية ان الأفارقة كانت تفلح الأرض من قبل ١٨,٥٠٠ سنة حين كان الجليد جاثما على وجه الأرض الأوروبية. زرعوا القمح والشعير والعدس والحمص والتمر والكبار الشائك. اعتمدوا مساحات يغمرها النيل حين يفيض، كما بقي ذلك أساس الزراعة لثلاث عشرة سنة أخرى حتى بدأت الحضارة الفرعونية المعروفة، واستمر النهج نفسه إلى عصرنا الحاضر.

وتدل الحفريات ان بدء الزراعة لم يؤذن ببدء إنشاء القرى ذلك ان ذلك الانسان بقي جوالا يقيم مؤقتا حيث الأرض تصلح للزرع، ولم يطرح الصيد والجمع، فكان الزرع موردا ثالثا لخزانة طعامه وشرابه، وتثير هذه الاكتشافات سؤالا قديما حول أسباب تحضر الانسان إذ انتفت العلاقة الزمنية المباشرة بين بدء الزراعة والحضارة معا.

مناخ الكُبَّانية

لم يكن وادي الكبانية انذاك على غير حاله الحاضر. أنهر بسيطة تشق تلاله الرملية، والأنهر تجف غالبا لقلة الأمطار، التي لا تسقط إلا مرة كل ١٥ سنة. لكن مستوى النيل كان انذاك أعلى مما هو عليه الآن، فكان الفيضان يطال القسم الأسفل من الوادي، فيتكون ما يشبه الحوض المائي الغني بالتربة الخصبة. وكان ذلك القسم من الوادي غنيا بالأسماك والطير من بط ووز، وأعشاب على حافتي الوديان الصغيرة، ترعاها قطعان من الحيوان. أما خارج هذا الشريط الحياتي فكانت الصحراء كما هي اليوم. ولقد وجد الخبراء اثار السكن على مرتفعات رملية مشرفة على الوديان والسهول.

الآثار والنبات والحيوان

بالرغم من جهل الخبراء لنوع الانسان المزارع انذاك، فانهم جمعوا تفاصيل كثيرة حول طريقة حياتهم اليومية، نتيجة ما وجدوه من

مخلفاتهم. واستطاع الخبراء تحديد الدورة السنوية للقوم خلال تقلب الفصول. وجدوا الحبوب، وأكثرها بزور، ووجدوا حجارة للطحن والدق، وأجران، وسكاكين حجرية، وقشاطات لسلخ الحيوان من جلده. كل الأدوات كانت على أشكال من الصغير إلى الكبير.

يبدو ان القوم لجأوا إلى المرتفعات الرملية مرتين كل سنة، أولهما خلال اب وأيلول حين كان الفيضان يشتد أواخر الصيف، وكانوا يعتمدون الصيد خلال ذلك، بما فيه السمك. أما عند انحسار الفيضان وجفاف المستنقعات فكانت الأسماك تموت، ولقد وجد العلماء كثيرا من عظامها، وأكثرها من سمك الجِرِّي (Catfish).

زرع وحصد

لا ريب في أن المنطقة السفلى من وادي الكبانية كانت جذابة لانسان العصر البالي: سمك في النهر، وز وبط في المستنقعات، عليق وشجر وعشب على ضفاف المياه، وإبل ترعى السهول الخضر، مع غيرها من القطعان. وبعد أن تجف المنطقة وتعود إلى قحطها يتركونها ويعتمدون الصيد، وجامعين ما حصدوه من حبوب وبزور. ويبدو ان الزراعة لم تكن على نطاق واسع، ذلك ان تحضير الأرض كان محالا عليهم انذاك لفقدان المحراث، فزرعوا في أرض سهل نبشها. والثابت أيضا انهم كانوا يدفنون البزور والحبوب في أرض وحلة قليلا، ويغادرون في الخريف إلى مناطق قريبة من النيل حيث يمكثون حتى الشتاء، ثم يعودون إلى الكبانية استعداد لموسم الحصاد. ولا يزال بعض المزارعين في هذا العصر يتركون الأرض إلى أجل معلوم ويعودوا ليحصدوا ما زرعوا من قبل!

منطقة إسنا

تدل الآثار المكتشفة ان أهل العصر البالي استوطنوا إسنا ١٥٠ كيلومتر شمال الكبانية، حيث نبش العلماء ادوات حجرية مثل تلك في الكبانية. وتدل الحفريات ان بعد الحصاد كان القوم يطحنون الحمص، أما العدس فكان يترك كما هو أو يدق إلى عجين في جرن كالذي وجده الخبراء. ويظن الخبراء ان ذلك الانسان اعتمد



□ يجد العلماء جورة فيحفرون ليستجلوا ما تحت السطح من آثار مدفونة.

الصيد في الربيع والصيف، توفيرا لما جمعه من حبوب التي استعملها حين كان الصيد يخف.

صحيح ان القمح والشعير وحبوب أخرى نمت برا، لكن الانسان «دجنها» وزرعها في مناطق لا تنبت فيها تلك الحبوب عشوائيا. ثم ان القمح البري يختلف شكلا عن القمح «الداجن»، والفحص المجهري للنماذج المكتشفة تدل على ان القمح كان من زرع الانسان.

القمح البري والقمح المزروع

المعروف ان الحبوب التي تسقط عن أمها برا، تكون خالية من بقايا الساق التي تحمل السنابل. الحبة تنضج وتسقط خالصة من الشوائب كالقش والتبن. أما التي يحصدها الانسان فتكون معلقة بقليل من ساقها، ولذلك يلجأ الفلاح إلى هرس ناعم للحصاد، ليفرق بين الحبة وشوائبها... للحبوب المزروعة غالبا، شرم خشن نتيجة الذر والكسر على حدود اللصوق بين الحبوب والنبات الأم. أما البري فهو ناعم نتيجة سقوطه تلقائيا بعد جفافه (راجع الصورة) ومن أهم البراهين على ان حبوب الشعير المكتشفة هي



□ خريطة تمثيلية: ظهرت الزراعة في مناطق مستقلة، لنباتات او حبوب استساغها اهل المنطقة فزرعوها.

١ ــ مصر وادي الكبانية قبل ١٨٠٠٠ سنة: قمح، شعير، عدس، حمص، تمر وكبار شائك.

٢ ــ إفريقيا الوسطى، التاريخ غير معروف: الرز الافريقي ــ القهوة، وبطاطا اليام والسرغم (نبات له ورق مثل الذرة وقصب السكر).

٣ ــ العراق، الهلال الخصيب، ٩٠٠٠ سنة: القمح، الشعير، البازيلا، والعدس.

٤ ــ المكسيك، قبل ٩٠٠٠ سنة: الفول، وبعده الذرة، البندورة، القطن.

٥ ــ اميركا الجنوبية قبل ٨٠٠٠ سنة: فول ليما، وبعده البطاطا وفستق العبيد.

٦ ــ الصين، قبل ٥٧٥٠ سنة: الملفوف والذرة البيضاء، وبعد ذلك الصويا.

من النوع المزروع كونها ملتوية قليلا. وهذا الالتواء غير معروف الا في أنواع من الشعير المزروع. وبما ان خشونة الحبوب المزروعة والتوائها لا تثبت فيها الا بعد مرور أجيال من الزرع، فإن ذلك يدل على زرع متعمد بدأ قبل ١٨٠٠٠ سنة بكثير. ثم ان الانسان القديم اختار من حيث لا يدري انواع الحبوب التي تتشبث بأمها بشدة. فالحبوب حتى في سنبلة واحدة تختلف بمتانة تعلقها فيسقط منها الضعيف.

الانسان القديم عالم

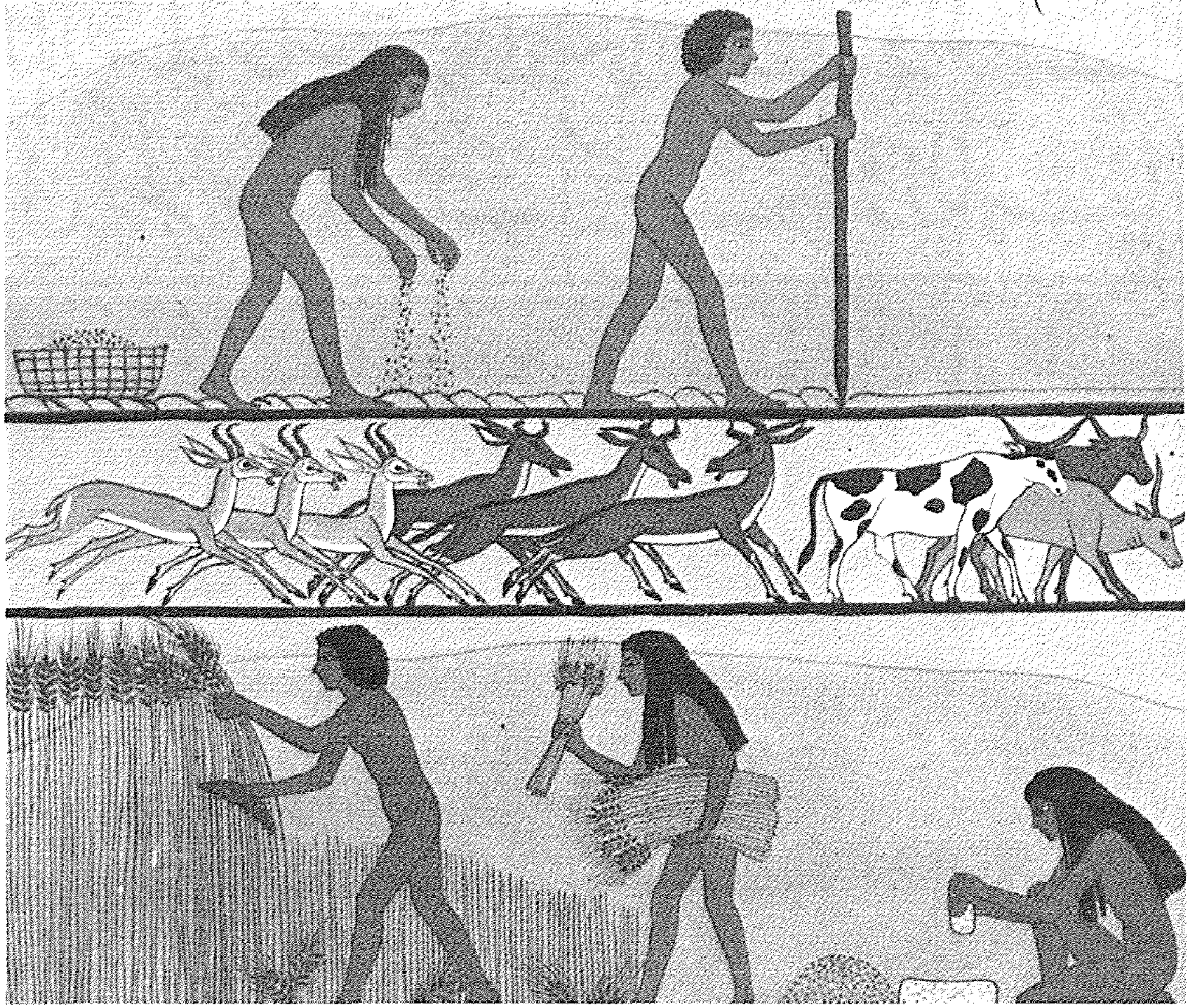
وهناك من الأسباب ما يوجب الاعتراف بان الانسان القديم لم يكن عشوائيا في عمله إذ اتبع نظاما معلوما في معالجته للنبات وللحيوان خلال سعيه نحو الطعام فاتقن التربية والانتقاء لما يساعده على البقاء آنذاك. وفي بعض أعماله جذورا بدانية لما نسميه اليوم (الهندسة الوراثية).

الفواكه

النبات، لا يحفظ كالحبوب، ليتعرف العلماء إلى أنواع الفواكه والخضراوات التي استعملها الانسان القديم. لكن الخبراء يعلمون بثبات ان رجل أوروبا أكل العنب من أربعمئة الف سنة. وفي جنوبي افريقيا طواحين حجرية أكبر من تلك المكتشفة في الكبانية بمرتين.

الكبانية جزء من تراث

تنقض حفريات الكبانية العقائد المألوفة حول شؤون الانسان القديم ومدى تقدمه أو مهارته.



□ تركت الحضارة الفرعونية سجلا جميلا لاعمال اهلها في قبورهم صور تشهد على ما دجنوا من حيوان ونبات. الزرع والحصاد وتربية الحيوان، كلها كانت من شغلهم.

ما وجده العلماء في الكبانية هو جزء من حضارات أو تقاليد كانت منتشرة على طول وادي النيل. فخلال الحملة العالمية لانقاذ الآثار التي اخذ سد اسوان العالي يهددها، وجد الخبراء طاحون عمره ١٤,٥٠٠ سنة، واكتشفوا أحجارا رقيقة الحد كالسكين والمنشار والمنجل. لم يجدوا الحبوب، لكنهم وجدوا في الترسبات النهرية غُبَيْريات العفن الصدئي الذي يلوث القمح، وغبيريات جرثومية لنباتات منقرضة وغير معروفة اليوم. ووجدوا أيضا ذرات الطلع للقمح الشعير.

كل هذه الآثار تدل على ان الكبانية كانت واحدة من مجتمعات زرعت وحصرت اختلاف أشكال الأدوات يدل على وجود مجتمعات مختلفة، لكنها واحدة في جوهر استعمالها لتلك الأدوات.

إنسان سعي

وليس ما يدعو إلى القول بان الانسان لجأ إلى الزراعة والتدجين الحيواني تحت ضغط الحاجة من قوت وسكن. بقي القوم في صحراء قاحلة بالرغم من ان وادي النيل واسع، وفيه غنى لهم عن صحراء جافة. بقوا ليمارسوا ويراقبوا زرعهم وأعمالهم وان كانوا يغادرون الصحراء إلى وقت معلوم. الزراعة اعطته فرصة ليروي غليله إلى زيادة معرفته، فأضاف إلى حياته عنصرا جديدا ولو بقي بعد الزراعة صيادا جوالا إلى أجل غير قصير. وهذا يوجب إعادة النظر في تاريخ الانسان القديم ومراجعة العقائد السائدة حول بداءته وشؤونه.

الإصلاحات الاجتماعية والمظاهر الحضارية الأولى في المرتفعات الجبلية اللبنانية

د. حسين سلمان سليمان

منظر عام لقصر بيت الدين.



استفاد الأمير بشير الشهابي الثاني من فترة الهدوء والاستقرار التي شهدتها بلاد الشام الجنوبية بعد وفاة والي صيدا احمد باشا الجزار (١٧٧٦ ـ ١٨٠٤)، واتخاذ خلفه سليمان باشا العادل (١٨٠٤ ـ ١٨١٩) سياسة اصلاحية تتعارض كليا مع أسلوب سلفه في الحكم. فسعى الأمير إلى الغاء بعض العادات الاجتماعية القديمة التي كانت تسود المرتفعات الجبلية اللبنانية، ومن تلك العادات «احتفال الحداد»[1] اي مظاهر الحزن المبالغ فيها على الموتى.

فقد كان هذا الاحتفال يجري، بصورة خاصة لدى الأسر الاقطاعية البارزة في المرتفعات اللبنانية، بطريقة تدل على زيادة إبراز جاه الأحياء اكثر ما تدل على مظاهر الحزن، فقد اعتادت تلك الأسر عند وفاة أحد أفرادها البارزين، على إجراء احتفالات حزن لمدة سبعة أيام. فيدعى إلى المأتم كل العائلات الاقطاعية وأبناء قرى جبل الدروز، وتستأجر النادبات المشهورات مقابل أجر ضخم، فالبكاء والعويل وأناشيد المديح التي تغنى بلحن محزن كئيب، هي المهمة التي تقوم بها هذه الجوقة على اكمل وجه. وفي أوقات الاستراحة من الندب والعويل تمثل بعض مشاهد من حياة الفقيد، فكانوا يلبسون شخصا من خشب أجمل ثياب المتوفي، ويدججونه بالسلاح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فيمر من أمامه جميع رجاله مسلحين، وتتبعهم خيوله وقد جهزت بكامل عدتها وجللت سروجها بقطع من القماش الأسود. ثم يحملون هذا الشخص على محمل ويطوفون به جميع أنحاء القرية، اما ليشهد قتالا أو سباق خيل، وفي كثير من الأحيان ليحضر الولائم وتناول المرطبات وخاصة القهوة. وفي خلال كل هذه المشاهد كانت الندابات يتبارين بالتفجع والصراخ الحاد، وكثيرا ما كان يحدث مشاجرات دامية خلالها نتيجة التسابق على حمل النعش. ويمتنع أهل الميت عن الاغتسال والحلاقة لمدة اربعون يوماً، ويفرض على جميع سكان اقطاعه ارتداء الثياب السوداء اللون، ولا تستثنى من ذلك القمصان التي لا تخلع ولا تبدل إلا بعد انقضاء أربعين

د. حسين سلمان سليمان: الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الرابع.

يوما. وتؤدي نفقات هذا الحداد عائلة المتوفي فترسل إلى كل من شاركوها حدادها، كل ما يلزم حتى الصابون ليغسلوا ثيابهم التي لبسوها بناء على رغبتها[٢].

وكان الأمير بشير كارها لتلك العادات، ويرى بأنها تتنافى مع احترام الارادة الالهية ويتوجب الغاؤها، وبوفاة شقيقة الأمير حسن ـ حاكم كسروان ـ بتاريخ ١٨ آذار ١٨٠٨، قرر الأمير بشير تثبيت ما كان عازم على تنفيذه، فأمر بإبطال اجراء «احتفال الحداد» المذكور، ومنذ ذلك الحين ألغيت هذه الاحتفالات البالغة النفقات لدى العائلات الاقطاعية في المرتفعات الجبلية اللبنانية[٣].

واتخذ الأمير بشير اجراءات لحفظ جبل الدروز من الأوبئة التي كانت تنتشر في المدن المشرقية بحيث كان يذهب ضحيتها اعداد غفيرة من السكان نتيجة الجهل وعدم الوقاية. ورغم أن المناخ النقي في المرتفعات الجبلية اللبنانية كان يحد من انتشار الأمراض السارية، ففي كثير من الأحيان كان ينتقل الطاعون إلى قرى تلك الجبال، قادما في أغلب الأحيان من مصر أو استامبول إلى بلاد الشام مارا بالمدن التي تفصل تلك البلاد عن العاصمتين المذكورتين ويسبب وفاة أعداد غفيرة من السكان[٤]. «بمدينة البصرة غاية ما بلغ اشتداد فعله خمسة عشر ألفا وأفنى خلقا كثيرين... أنه أفنى من الناس خمسة عشر ألفا وكذلك بغير أماكن من جزيرة العرب...»[٥].

ولكي يتجنب الأمير بشير انتشار هذا الوباء في المرتفعات الجبلية اللبنانية الخاضعة لسلطته، ادخل في سنة ١٨٠٦ التلقيح واستخدم في البداية بين الأسر الاقطاعية ولم يلبث أن عم البلاد. ولم يكتف بهذا الاجراء فقط لمنع انتشار الطاعون في جبل الدروز، ففي سنة ١٨١٣ على اثر انتشار هذا الوباء في مدينة عكا «ومات ماينوف عن الثلث ما فيه من المدينة من الناس»، وسرعان ما ساد أيضاً في بلاد الشام الداخلية والساحلية على السواء. اصدر الأمير بشير أمراً بإتخاذ إجراءات غير معروفة في باقي بلاد المشرق، ومن ذلك فرض على زعماء قرى الجبل، أن كل من يصاب في قراهم بالطاعون أن يبادروا فورا بنقله مع جميع أفراد بيته إلى معسكرات خاصة أقامها لهذا الغرض، وكل من اقترب من المطعونين يتم عزله في معسكرات مماثلة وجعل الجميع تحت الرقابة الشديدة. كما أقام دوريات متحركة ومراقبين في كل المنافذ المؤدية من الساحل إلى الجبل، لمنع قدوم الأغراب ومنع الاتصال بمدن الساحل، وحظر على العمال الموسميين الذين انتقلوا في تلك السنة إلى بيروت للقيام بأعمال تتعلق بإنتاج الحرير، من العودة إلى بيوتهم في الجبل إلا بعد اختفاء الوباء من المدينة، ومنع جميع «المكارية» الذين يمرون على الطرقات الرئيسية التي تصل بيروت ببلاد الشام بعدم دخول الجبل، وأقفل كل الحوانيت والفنادق الموجودة على الطرق المذكورة. وبذلك حفظ الأمير بشير جبل الدروز من الطاعون الذي كان منتشرا في مدن الساحل وفتك بأعداد ضخمة من السكان[٦]. وحدثنا عن ذلك المؤرخ الأمير حيدر الشهابي[٧] بقوله.

«سلم الله دير القمر والبلاد من الطاعون بسبب تدبير الأمير...».

وإذا كان الطاعون بمثابة الكارثة التي كانت تلقي الرعب بين أهالي الشام، بسبب الأعداد الكبيرة من الضحايا التي كان يسببها هذا الوباء، فإن قدوم الجراد كان يلحق بهم نكبات اقتصادية، فيأكل الأخضر واليابس معا، ولا يكتفي بذلك فقط، بل يفقس بيوض لا تلبث أن تفرخ فتأتي على ما تبقى. واعتقد الأهالي أن هذه المصيبة التي كانت تحل بهم، إنما هي نتيجة ازدياد الفجور والفسق، والغرور والغلاء والشرور[٨]، فيحاولون التخلص من الجراد بوسائل بدائية للغاية. إما عن طريق استقدام نوع من الطير يدعى السمرمر، كانوا يعتقدون انه يفتك بالجراد، فيحرصون على الاتيان به إذا نزل الجراد بأرضهم، واعتقدوا أن هذا الطير لا يأتي إلا تابعا نوعا خاصا من الماء، يؤتى به خصيصا من عين ماء بين أصفهاء وشيراز. فإذا نزل الجراد بأرض حلب إليها من تلك العين ماء، بحيث أن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه، فيبقى طير السمرمر فوق رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل


□ الأمير بشير الشهابي الكبير.

إلى الأرض التي بها الجراد، فتقع عليه الطيور وتقتله[٩].

كما لجأ الأهالي إلى أساليب أخرى، عن طريق كتابة الأدعية والمراسلات لتعلق على الزرع[١٠]، وفي أحيان أخرى كان يخرج سكان المدن بالأعلام والطبول، إلى قبور الأولياء طالبين منهم أبعاد هذا الخطر والضرر عن ديارهم، وأشار إلى ذلك المؤرخ أحمد البديري[١١] الحلاق بقوله عن أهالي دمشق:

«قصدوا زيارة السيدة زينب واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد».

أما في المرتفعات الجبلية اللبنانية فقد تصدى الأمير بشير الشهابي الثاني لهذا الخطر، بإتخاذ اجراءات حاسمة تحول دون انتشاره. فكان يرسل رعاياه إلى الحقول والبراري ويحدد على كل فرد أن يجمع مقدار نصف مد من بيوض الجراد، وعين أشخاصا معينين «مباشرين» للاشراف على ذلك العمل، تنقل إليهم البيوض ليتم إبادتها في الحرق والرفس فيما بعد. أما ما كان قد فقس من بيوض الجراد، فكان يأمر بجمعه ثم اقامة حفر خاصة لطمه أو حرقه بها، ولم يعف الأمير بشير أحدا من أهالي الجبل من المشاركة في أعمال المكافحة، بما في ذلك الأمراء أبناء عمه وحاشيته، وبذلك كانت المرتفعات الجبلية اللبنانية تسلم من أذى الجراد. وقد حاول باشا عكا تقليد الأمير بشير في ذلك، فاتخذ سنة ١٨١٩ في البلاد الخاضعة لحكمه المباشر، اجراءات مماثلة لتلك التي قام بها الأمير بشير، وقاد بنفسه حملة لمكافحة غزو الجراد، لكنه لم يستطع أن يحقق نجاحا لأن رعاياه كان ينقصهم النظام[١٢].

وسعى الأمير بشير إلى تنشيط التجارة في جبل الدروز، عن طريق تأمين الشرطين الرئيسيين لذلك، وهما اقامة الأمن واقرار العدالة في البلاد. فبالنسبة للعنصر الأول أمر سنة ١٨١٢ بالغاء ضريبة «الخفر» على الطرقات، وهي ضريبة كانت مقررة منذ أجيال قديمة، على الطرقات الرئيسية التي تصل بيروت بدمشق، والتي تمر عليها أعداد كبيرة من القوافل التجارية، وكان هناك مركز لجبايتها عند خان الحصن والمديرج والناعمة ومينائي جونية وجبيل. وسبب هذا الاجراء في تشجيع المبادلات التجارية وانتقال القوافل[١٣].

ولم يكتف الأمير بشير بهذا الاجراء بل سعى إلى تسهيل المواصلات والانتقال ما بين طرق الساحل والجبل، فأقام سنة ١٨٠٩ جسرا عند نهر الكلب لتأمين اتصالات المقاطعات اللبنانية الشمالية بالجنوبية، ثم أمر سنة ١٨١٤ باقامة جسر على نهر الدامور[*] عمل فيه مئة وخمسون بناء وكلف مئة ألف قرش، كما أمر بترميم نهر الكلب ورصيف جونية[١٤].

ولم يكتف الأمير بشير بتسهيل المواصلات الساحلية، بل سعى أيضا إلى تسهيل تلك المؤدية إلى الجبل، وكانت على درجة كبيرة من السوء «تشبه دروب الماعز أكثر من أن تكون طرقا لتنقل البشر»[١٥]. وقد اعتبر سكان المناطق الجبلية هذا النقص كمكسب، حتى أن الأمراء والمشايخ كانوا يعارضون تحسين الطرق المؤدية إليهم[١٦]، بل انهم أيضا وفقا لرواية فولني[١٧] كانوا يعملون على زيادة وعورة المنافذ المؤدية إلى الجبل لكي يحولوا دون وصول قوات الولاة الأتراك إليهم. لكن الأمير بشير كان نظره أبعد من ذلك، إذ وجد أن امتداد سلطته على كل الأنحاء يتطلب ازالة كل العوائق، كما أنه يسهل العلاقات التجارية بين السهل والجبل، فأمر بشق طريق يصل دير القمر ببيروت[١٨].

اما فيما يتعلق بالعدالة فقد كانت تجري عن طريق رجال الاقطاع، الذين أجيز لهم النظر في الدعاوى العامة، فكان الاقطاعي يقوم بدور القاضي ويحكم وفقا للعادة، بحيث كان من حقه أن يصدر أحكاما بالسجن والجلد. أما الجرائم الأكثر خطورة والتي عقابها الاعدام أو التشويه الجسدي، فقد كانت من اختصاص الأمير الحاكم[١٩]. وحين ازدادت سلطة الأمير بشير شعر بضرورة توحيد جميع فئات السكان، فبدأ باتخاذ اجراءات بهدف فرض سلطته التامة على الجميع[٢٠]، فسحب من المقاطعجية امتياز النظر في القضايا المدنية، وأحال هذه الأمور إلى قضاة اختصاصيين معينين من قبله، ينظرون فيها على أساس الشريعة الاسلامية في المناطق الدرزية والاسلامية، وعلى أساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق المسيحية، وأنيطت بحكام المقاطعات سلطة تنفيذ أحكام المحاكم المختصة في القضايا المدنية[٢١]. وأقام محكمتين واحدة في دير القمر والأخرى في غزير، ووزع عددا من أمراء آل شهاب في مختلف أرجاء الجبل، وخول لكل منهم حق النظر في الدعاوى والفصل فيها، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تأمين فعالية أكبر للسلطة المركزية[٢٢].

وأعطى الأمير بشير العدالة انتباها خاصا بغرض كسب ولاء ومحبة السكان، وصار دقيقا في اصدار أحكامه القضائية والاتيان بسرعة بالمحتالين والمعتدين والمتهمين[٢٣]، بواسطة قوة حربية غير منظمة من الشرطة «حواليه»، لم يرتفع عددها إلى أكثر من ألف خيال وألف ومئتين مشاة، استقر الجانب الأكبر منهم في قصره في بيت الدين، في حين توزع الباقي في مختلف أنحاء الجبل[٢٤]. وعند حصول قضايا عنف يصار تحقيق رسمي، ويستنفر قوة للبحث وجلب المجرمين، ونادراً ما كان هؤلاء ينجون من العقاب، ويمكن ذكر عدد من القضايا التي تم القبض فيها على مجرمين، رغم فرار بعض هؤلاء إلى خارج البلاد[٢٥].

اقامة قصر بيت الدين

وبانتزاع الأمير من الاقطاعيين امتياز النظر في الدعاوى العامة، وبتمكنه من ضرب القوى المحلية البارزة في جبل الدروز، تطلع إلى اقامة نصب تذكاري لسلطته وعظمته، فسراي دير القمر لم تعد مناسبة لتكون مقرا للحكومة، فهو مهدد فيها بكل لحظة بقيام ال نكد باضطرابات قد تطيح به. فتطلع إلى الانتقال إلى مقر جديد للحكم واختار قرية بيت الدين(**) لتحقيق هذه الغاية، فهي ذات موقع جميل تعلو عن سطح البحر نحو مئتين وخمسين مترا، كما أنها المكان الأول الذي نزل به عند قدومه إلى الشوف من غزير، ويعتبرها فأل خير للمجد والعظمة والخيرات والنعم التي ينعم بها[٢٦].

وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت بيت الدين مجرد جبل أجرد، لا يقطنه الناس وإنما يرتادونه لقنص الحجل، وكان قد أقام عليه بعض أتقياء الدروز خلوة لمجالسهم الدينية[٢٧]. وبعد زواج الأمير بشير من الست شمس شهاب أرملة ملتزم حاصبيا، اشترى بجزء من مالها قمة من الجبل تعلو حوالي ثلاثين مترا عن الأرض المحيطة بها، وتشرف على البحر من الجهة الغربية وشرع يبني عليها بيتا للسكن[٢٨].

ولم تشر المصادر إلى السنة التي بوشر بها في البناء وقد تكون فور زواجه[٢٩]، ويعتقد بأن زوجة الأمير كانت تقطن في الأقبية وانجبت فيها أبناءه الثلاثة، بينما كان زوجها يقيم في سراي دير القمر[٣٠]. وبعد شراء الجبل شجع الأمير بشير أصحاب الأملاك، والتي كانت كلها قاحلة جرداء إلا من بعض النباتات البرية، بمكافأة جزيلة لمن يقوم بحراثتها وغرسها بالنصوب. فأقيمت بالمناطق المنحدرة مصاطب غطيت بالتراب، ووزعت فيها النصوب التي تتلاءم مع المناخ من زيتون وكرمة وتوت وتين. وبالتدريج تغيرت طبيعة المنطقة، وتحولت الأرض البور إلى جنائن خضراء في غاية الجمال[٣١].

وفي عام ١٨٠٧ باشر العمل باقامة القصر[٣٢]، فأتي بالبنائين ليس فقط من مختلف القرى اللبنانية ولكن كذلك من حلب ودمشق[٣٣] واستنبول وايطاليا[٣٤]. واستخدم في بناء القصر أو «سراي الحكم» والمقاصف، مواد محلية من إنتاج الجبل، سواء من حجارة وبلاط وأخشاب وحديد[٣٥].

وحين أشرف البناء على الانتهاء شعر الأمير



□ صالون الاستقبال في قصر بيت الدين.

بشير، أن اكتمال السراي يتطلب امرا ضروريا للغاية، إذا لم يسع لتأمينه يكون كل ما تكلفه من نفقات مسرفة قد ذهب هباء. فالماء الموجودة لا تكفي لمن سيسكن السراي، من حاشية وجند وموظفين وأتباع ومن يفد إليه من زوار وأصحاب حاجة، بعد أن تنقل إليه دوائر الحكم. ورغم بعد منابع المياه عنه فقد سعى لتأمينها[٣٦].

فعلى بعد ثلاث مراحل من بيت الدين يوجد نبع الصفا بالقرب من عين زحلتا، وتنحدر مياهه الغزيرة لتصب بالقرب من سهول صيدا ولكي يؤمن الاستفادة من هذه الهبة الطبيعية خطرت له فكرة جريئة لكنها غير عملية، فقد سبق لمياه الباروك أن مدت إلى قصر المختارة، وامنت حاجته من المياه، فلماذا لا يقوم الصفا بعمل مماثل في بيت الدين[٣٧].

وفي عام ١٨١٢ باشر في هذا العمل واستدعى كل رعاياه في جبل الدروز لتنفيذه، وصدرت أوامر لكل مقاطعة بتزويد عدد معين من العمال في وقت معين، وحمل المقاطعجي مسؤولية حضورهم في الوقت المطلوب والمكان المحدد. وكان كل فرد مجبرا أن يساهم في يومي عمل مجاني في السنة، واشتغل في انجاز هذا المشروع حوالي ثمانين الف رجل، دون أن يتكلف الأمير الحاكم أية نفقات من مصادره كأجور لهم[٣٨].

وبالرغم من السخرة التي فرضها الأمير بشير على كل رعاياه، فقد احتاج إلى أكثر من مئتي الف قرش، استدان بعضها وفرض البعض الآخر بمثابة ضريبة، على الأمراء والمشايخ والأعيان والأحبار والرهبانيات وكل من وجده قادرا على الدفع، وخلال فترة زمنية ـــ لم تتفق المصادر(*) على عددها ـــ من العمل الشاق، أتم المهندسون حفر قناة في منعطف الجبل، وأوصلوا المياه إلى بيت الدين[٣٩]. وامتدح هذا العمل المعلم بطرس[٤٠] كرامة بقوله:

صاح قد وافى الصفا يروي الظما
بشراب كوثري العَسِ
وافاض الشهد في روض الحمى
لجلا الغمّ وبرء الأنفسِ

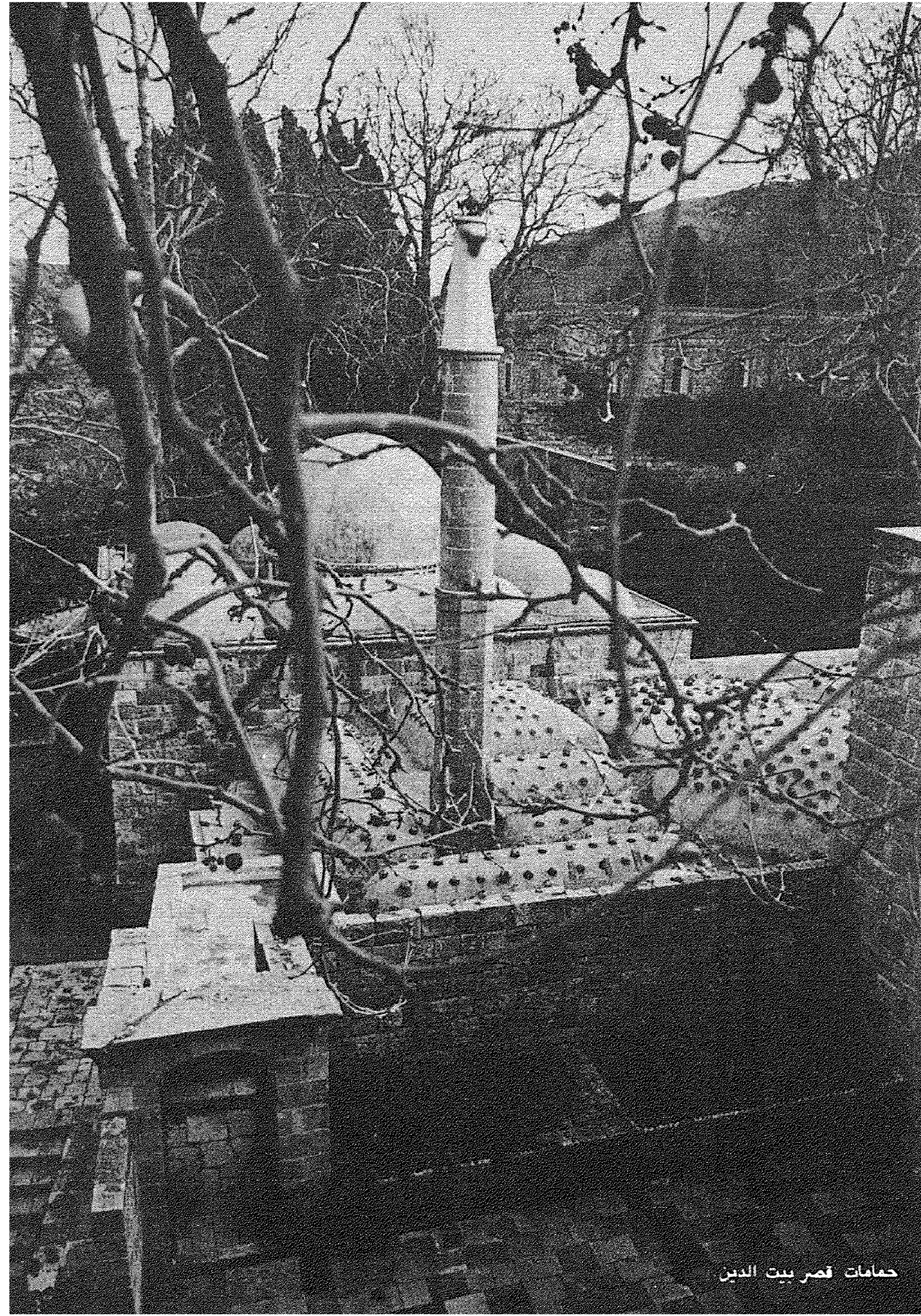
وفي عام ١٨١٤ تم انجاز بناء السراي فاتخذت الطراز التركي الممتزج بالطراز الايطالي وضمت سراي الأمير وثلاثة مقاصف لأبنائه، وتألفت السراي من مدخل واربعة أجنحة. وتميز المدخل بفخامته ويبلغ علوه خمسة عشر مترا، كله مبني من الرخام الوطني والأجنبي الفاخر، ومزين بنقوش في غاية الجمال، تمثل أشكالا هندسية لنباتات وتصاوير شتى. تعلوها الطغراء(***) السلطانية المحلاة بالذهب[٤١].

وتعتبر الدار الكبيرة المعدة لجلوس الأمير، اهم أجنحة السراي وتعرف باسم «قاعة العامود»، لوجود عامود من الرخام في وسطها[٤٢]، وطول هذه الدار حوالي أربعين مترا وبعرض مماثل. وفي صحن هذه الدار بركة بيضاوية الشكل، طولها نحو خمسة أمتار وعرضها من الوسط نحو مترين ونصف المتر وعمقها متر واحد، يصب فيها الماء من أفواه اربعة ميازيب من النحاس متقابلة على شكل أسود. والدار مبلطة بالبلاط الجميل النظيف المتخذ من مقالع الجبل، وزين سقفها بنقوش من الذهب، وكسيت الجدران بالديباج بينها كتابات بديعة تشتمل على آيات قرآنية[٤٣].

وفي صدر الدار إلى شمال الداخل قاعة كبيرة شاهقة، جمعت بين الزخرفة واتقان الصنعة، وبين النقوش الجميلة والبناء الفخم. ويبلغ ارتفاع سقفها نحو ستة أمتار، وفوق قوس الباب يرى الجالس في صدر القاعة مقابله أبياتا شعرية[٤٤].

ويلي قاعة العامود في الفخامة جناح الحريم، ويرقى إليه بدرجات من الرخام، مع درابزين من النحاس المموه بالذهب المشبك من كل الجهات. ويتميز هذا الجناح باتساعه واختراق الشمس والهواء له من كل الجهات، ويشتمل عدة دور متداخلة على غرف للشتاء وأخرى للصيف. وفي وسط الدار بركة بيضاوية الشكل في غاية الجمال، طولها ثماني أذرع بعرض اربع أذرع عند الوسط ثم تضيق باستدارة، وفي وسطها نافورة يرتفع ماؤها بالفضاء إلى علو ثلاثين ذراعاً[٤٥].

ويتصل جناح الأمير بآخر مخصص للضيوف الغرباء ويشتمل على قاعات وغرف واسعة، وفي وسطها بركة مستديرة قطرها متر ونصف المتر وعمقها متر، وهي منحوتة من حجر واحد وفي وسطها نافورة. وللدار مستراحان متقنان في كل



حمامات قصر بيت الدين

منهما ميزاب متين من الحجر الصلد، تجري فيه المياه ليلا ونهارا ويجري في كل منهما من الماء مقدار فم القربة. في حين خصص للضيوف الأخصاء من أقاربه أو الذين ينحدرون من بيوتات الجبل السبع، جناحا خاصا في الجهة الغربية من السراي، تميز بأنه اكبر واكثر اتقانا من ذلك المخصص للغرباء(٤٦).

واقام الأمير في داخل السراي حماما فخما حوى كل أسباب الراحة والزينة، ويضم عدة اجران من الرخام الأبيض الجميل يدخل إليه الماء بغزارة. ويشتمل على نحو عشرين غرفة كل واحدة مستقلة عن الأخرى، وفي كل غرفة جرنان واحد للماء البارد وآخر للماء الساخن، يصب فيها الماء من أفواه تماثيل من النحاس. وللحمام مكان واسع للاستراحة متقن الصنع، قام ببنائه وهندسته أمهر صناع دمشق فأفرغوا فيه كل ما اكتسبوه من المهارة(٤٧).

وككل قصور زعماء العائلات الاقطاعية في المرتفعات الجبلية اللبنانية، حرص الأمير بشير ان يقيم أمام هذه السراي الضخمة ميدانا كبيرا، يعرض فيه سلطته ويستقبل فيه أصدقاءه وضيوفه وكبار الشخصيات الوافدة إلى قصره، حيث يتم إظهار مقامه ومكانته الاجتماعية. وكان يبلغ طول ميدان بيت الدين حوالي مئة وخمسين مترا وبعرض ستين مترا، وقد أنفق الأمير في تسطيحه وجعل أرضه جاسية نفقات باهظة(٤٨). ويتم الدخول إلى هذا الميدان من بوابة كبيرة، في طريق عرضها نحو ستة أمتار معقود فوقها بالحجارة، وعلى جانبي الطريق أقبية كبيرة واسعة كان يقيم فيها حرس الأمير. وفوق هذا البناء دار كبيرة واسعة لمماليكه وإلى جانبها دار اخرى ينزل بها الضيوف العاديون، واتخذ من احد الأقبية مخزنا للبارود(٤٩).

كما ابتنى الأمير على الجبل المطل على السراي، ثلاثة قصور سميت مقاصف لكل من أولاده الثلاثة (خليل وأمين وسعود)، وهذه المقاصف على مقربة من بعضها، بحيث لا يفصل الواحد عن الآخر كيلومتر، واشتمل كل منها على نحو خمسين مسكنا عدا الأقبية التي تحتها، وأدخل الماء إلى كل منها بصورة بديعة. ولكل من هذه المقاصف الثلاثة دار سماوية، طولها نحو خمسين مترا وعرضها كذلك، وحديقة تحتوي على ما لا يعد من أصناف الشجر المثمر وغير المثمر المغروس بكل اعتناء(٥٠).

اما بالنسبة لتكاليف هذه الأبنية فقد أشار جرجس(٥١) صفا، نقلا عن احد العاملين في خدمة الامير ــ كان أطلع على نفقات هذه القصور ــ بأنها بلغت ستة آلاف وخمسماية كيس. وبأن أجرة عامل البناء كانت في اليوم ثلاثين بارة ثم صارت قرشا ونصف، في حين كانت أجرة المعلم في اليوم من خمسة قروش إلى سبعة، وكلهم يأكلون ويشربون على نفقة الأمير.

الهوامش

(١) حيدر الشهابي. الغرر الحسان في اخبار أبناء الزمان. مخ. نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. ٣ أجزاء، بيروت: ١٩٦٩. انظر ج ٢ ص ٥٢٣. هنري غيز. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبود، جزءان، منشورات دار المكشوف، بيروت: ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠. انظر ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٣.

(٢) المكان نفسه: هنري غيز. مصدر سابق، ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٤.

(٣) المكان نفسه، هنري غيز، مصدر سابق؛ ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٤.

(٤) هنري غيز. مصدر سابق، ج ١ ص ٢٤١ ــ ٢٤٣.

(٥) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (B.E1) بيروت، محفظة رقم ٦.

(٦) حيدر الشهابي. مصدر سابق، ج ٣ ص (٥٩٠ ــ ٥٩١).

(٧) الغرر الحسان. مصدر سابق، ج ٣ ص ٥٩٠.

(٨) أحمد البديري الحلاق. حوادث دمشق اليومية، مخ. حققه د. أحمد عزت عبدالكريم، مطبعة لجنة البيان العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٥٩، انظر ص ٩١.

(٩) المرادي. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (٢١٤ ــ ٢١٥).

(١٠) احمد البديري الحلاق. مصدر سابق، انظر هامش ص ٧٣.

(١١) حوادث دمشق اليومية، ص ٩١.

(١٢) حيدر الشهابي: مصدر سابق، ج ٣ ص (٥٧٦ ــ ٥٧٧) و ٦٢٩.

(١٣) المصدر نفسه. ج ٣ ص ٦٥٠.

(١٤) المصدر نفسه. ج ٣ ص ٥٨٠.

(١٥) Churchill, Henry Spencer., Mount Lebanon..., London, Saunders and otley, 1853. 3 vols. see v. 3, p. 272.

(١٦) Loc.cit.

(١٧) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، جزءان.

(١٨) Churchill. op.cit. v. 3, p. 272.

(١٩) سميليا نسكايا، ا.، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تع.، عدنان جاموس، راجعه وقدم له سالم يوسف. دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٢. انظر ص ٣٣.
Perrier, Ferdinand., La Syrie sous Le Gouvernement de Mehemet-Ali Jusqu'en 1840. Paris, 1842. Voir p. 311; Aouad, Ibrahim., Le droit privé des Maronites au temps des Emirs Chehab 1697-1841, Paris, 1933. Voir p. 121.

(٢٠) Churchill. op.cit. v. 3, p. 259.

(٢١) Aouad. op.cit. p. 121; Perrier. op.cit. p. 311.

(٢٢) Churchill. op.cit. v. 3, p. 260.

(٢٣) لمزيد من المعلومات انظر .Ibid. pp. (273-274)

(٢٤) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D.) Turquie مجلد رقم ١٢٢ وثيقة رقم ٢٣ صادرة عن بيروت بتاريخ ١٠/٢/١٨٣٣.

(٢٥) لمزيد من المعلومات انظر Churchill. op.cit. V. 3, p. 263.

(٢٦) لحد خاطر. بين أمير وراهب. الكسليك، ١٩٧٠. انظر ص ٩٤.

(٢٧) يوسف ابراهيم يزبك. (كيف ولماذا بنى قصر بيت الدين) مجلة **اوراق لبنانية** م ١ ص (٢٩٦ ــ ٢٩٧)؛ عيسى اسكندر المعلوف. الأمير بشير الكبير المعروف بالمالطي، زحلة، ١٩١٤. انظر ص ٤٤.

(٢٨) المرجع نفسه. ص ٢٩٧.

(٢٩) المكان نفسه.

(٣٠) المرجع نفسه. ص (٢٩٦ ــ ٢٩٧).

(٣١) Churchill. op.cit. v. 3, pp. (263-264).

(٣٢) Chebli, Michel., Une Histoire du Liban à l'époque des Emirs, 1635-1841. Beyrout, 1955. voir p. 242.

(٣٣) Churchill. op.cit. v. 3, p. 265.

(٣٤) لحد خاطر. مرجع سابق. ص ١٧٥.

(٣٥) جرجس صفا. (سراي الأمير بشير في بتدين) مجلة **الكلية** م ١٨ ص ٤٠ و ١١٥، سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢؛ جوزف نعمة. صفحات من لبنان. جزءان، دير القمر، ١٩٧٧. انظر ج ١ ص ٦٤.

(٣٦) لمزيد من المعلومات راجع: المرجع نفسه. ص (١٢٣ ــ ١٢٤)؛
Churchill. op.cit. V. 3, pp. (266-269).

(٣٧) Ibid. pp. (267-268).

(٣٨) جرجس صفا. مرجع سابق، **الكلية** م ١٨ ص (١٢٣ ــ ١٢٤).

(٣٩) Burckhardt, John Lewis., Travels in Syria and the Hogy Land. London, 1822. See p. 194.

(٤٠) سجع الحمامة أو ديوان المعلم بطرس كرامة. مخ، نشره سليم ناصيف، بيروت ١٨٩٨، ص ١٣٧.

(٤١) اسماعيل حقي. لبنان مباحث علمية واجتماعية. جزءان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠. انظر ج ٢ ص ٦١٨.

(٤٢) جرجس صفا. مرجع سابق. **الكلية** م ١٨ ص (٤٠ ــ ٤١).

(٤٣) اسماعيل حقي. مرجع سابق. ج ٢ ص ٦١٨.

(٤٤) جرجس صفا. مرجع سابق، **الكلية** م ١٨ ص (٤٠ ــ ٤١).

(٤٥) المرجع نفسه. (ص ٣٩ ــ ٤٠).

(٤٦) المرجع نفسه. ص (١١٦ ــ ١١٧).

(٤٧) المكان نفسه.

(٤٨) المرجع نفسه. ص ١١٧؛
Churchill. op.cit. v. 3, p. 265.

(٤٩) المكان نفسه.

(٥٠) المرجع نفسه. ص (١١٢ ــ ١١٣).

(٥١) (سراي الأمير بشير) **الكلية** م ١٨ ص ١١٤.

(*) تضاربت الأقوال في تفسير كلمة بيت الدين، ففي حين يشير يوسف ابراهيم يزبك أن الكلمة من السريانية ومعناها بيت الحكم أو بيت الدين، وبأنها كانت في الأصل مدينة عريقة ولكن لا يعرف عنها شيء قبل أواخر القرن الثامن عشر، انظر (كيف ولماذا بني قصر بيت الدين) **مجلة اوراق لبنانية** م ١ ص ٢٩٦. أما جرجس صفا فيرى أن الكلمة مشتقة من «بيت ديانا» وهي آلهة الصيد عند السكان الأقدمين، بدليل أنه يوجد على بعد ساعة من بيت الدين صورة للصيد منقوشة على صخرة هناك لا تزال ماثلة الآن للعيان، انظر (سراي الأمير بشير في بيت الدين) مجلة **الكلية** م ١٨ ص ٣١.

(**) أشار جرجس صفا بأن شق القناة استغرق نحو ست سنوات.

(***) الطغراء شعار ورثه العثمانيون عن السلاجقة وهو عبارة عن نقش متداخل معقد باسم كل سلطان، كان يستخدم كتوقيع للسلاطين العثمانيين يوحي بالعظمة ويصعب تقليده، ثم تحولت تآليفا فنيا وانتشرت في كل أنحاء العالم الاسلامي والعربي.

الصور من مجموعة وزارة السياحة اللبنانية

معابر الطب العربي إلى الغرب

د. محمود الحاج قاسم محمد



□ د. محمود الحاج قاسم محمد: «عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب».

«فتح العرب تحت راية (الاسلام) نصف العالم في مدة قرن واحد ثم كان أعظم همهم... أن يضموا إلى عظمة الفتح عظمة العلم فلم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب كما يقول لوكليرك قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا... كان في بغداد نحو مئة مترجم ينقلون كتب اليونان إلى العربية والسريانية وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في اسبانيا مركزا لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية»(١).

فهكذا اقتبسوا علوم أمم سبقتهم وأخرى عاصرتهم مستفيدين منها وبعد أن هضموها أضافوا إليها الكثير من اكتشافاتهم وتجاربهم العلمية الخاصة ثم جعلوا بقية الأمم تستفيد منهم ومن علومهم بنفس الطريقة التي استفادوا هم فيها من الأمم الأخرى ونجيز لأنفسنا القول بأن بعض العلوم والمعارف لولا اهتمام العرب والمسلمين بنقلها وشرحها وتطويرها لضاعت وعفا عليها الزمن.

لم يكن في العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب والمسلمين وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلا عنهم، ولم يشك احد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب والمسلمين في الطب علما وعملا وتنظيما هذه حقيقة تاريخية هي الأخرى متفق عليها.

في هذا الوقت بالذات كانت أوروبا تتخبط في دياجير الجهل والظلام وتعسف رجال الدين ضد العلم والعلماء خاصة بعد انهيار الحضارة الاغريقية الرومانية نتيجة للغزوات البربرية التي قامت بها القبائل الشمالية حيث قضت عليها قضاء مبرما بعد أن كانت هذه الحضارة هي العلامة المميزة لأوروبا، وما عندهم من العلم والثقافة كان محصورا في مكتبات أكثرها في الأديرة وبعضا منها في قصور حكام الاقطاع وجل ما كانت تحويه هذه المكتبات من الكتب كانت دينية للهداية وتواريخ حياة القديسين، وحظ الطب منها قليل جدا، لا يكاد يذكر وهذا القليل لم يكن في أحسن الأحوال علما يعتد به وإنما كان عبارة عن معلومات بدائية متوازنة جامدة لدى بعض الرهبان الذين كانوا يتولون معالجة المرضى.

«ودامت حال الطب على هذا النحو حتى حرم جمع أساقفة تلرمونت في سنة ١١٣٠م ثم لطران في سنة ١١٣٩م وتورفي سنة ١١٦٣م على القساوة مزاولة الطب، فأصبحت هذه المهنة حرفة علمانية. وقد قارن هذا التغيير ظهور أول جامعات على وجه التقريب فانحدر الطب إلى اتجاهات جديدة رسمها إلى حد كبير ما اكتسبه من الشرق»(٢).

أما الطرق التي سارت فيها العلوم العربية ومنها الطب إلى الغرب فكانت:

١ ــ طريق اسبانيا (الاندلس):

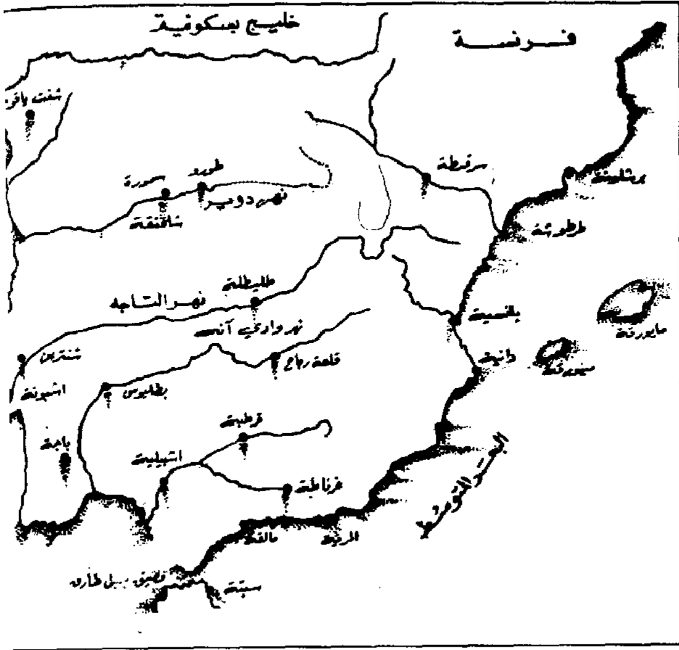
لقد استمر تواجد العرب المسلمين في الأندلس مدة ثمانية قرون (٩٢ ــ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ــ ١٤٩٢م). وقد حملوا طيلة هذه القرون مشعل العلم والحضارة، واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوروبا على طليطلة واشبيلية وقرطبة حيث كان المستعربون وطلاب العلوم يشدون الرحال إليها وفي عام ٩٢٥ أرسل أوتو الكبير ملك الالمان راهبا من اللورين إلى قرطبة فدرس العلوم والثقافة العربية وحمل معه المخطوطات العلمية العربية وبنفس الوقت أدخلت العلوم العربية إلى الجزر البريطانية واشهر هؤلاء جربرت أو البابا سلفيستر الثاني المتوفي سنة ١٠٠٢م حيث كان من أوائل المهتمين بالثقافة العربية وهو الذي ادخل الأرقام العربية إلى أوروبا بدل الأرقام الرومانية.

واستمرت طليطلة محافظة على مركزها العلمي حتى بعد غزو الفونسو لها واحتلالها حيث أنشأ فيها المطران ريموند عام ١١٢٠ حركة ومدرسة واسعة للترجمة واستدعى إليها علماء من مختلف الأديان ليقوموا بنقل الكتب والعلوم العربية وترجمتها «كما كانت بغداد فيما سبق مركز نقل الثقافة اليونانية إلى العرب. ولكن شتان بين الاثنين. فإن المعربين العرب كانوا على جانب عظيم من النزاهة في النقل والمقدرة في العربية واليونانية معا ومن التضلع في الموضوع الذي يترجمونه. كما كانوا يتمتعون بعناية الحكام ومعونتهم المادية والمعنوية. بينما كان المترجمون الأوروبيون الذين نقلوا العلوم العربية إلى اللاتينية قليلي المعرفة باللغة التي ينقلون عنها وفي الموضوع الذي ينقلونه وبعضهم كانت تنقصه النزاهة».

«وقد أمها العلماء من أوروبا وانكلترا ومنهم جيرارد كريمونا وميشال سكوت واديلارد من بات وروبرت من سشتر وحنا الاشبيلي وهرمان الدلماسي وخلافهم. ومن المترجمين أيضا جند يسالفي (رومونيكو كنزالس) وبلاطون التريبوري ومرقس الطليطلي والباموس وجيرارد سابيوتا وغيرهم»[٤].

ومن مدرسة اشبيلية أيضا (١٢٠٤م) تخرج كبار الفلاسفة الغربيين وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات حتى عام ١٥٨٠م. واشهر المترجمين من العربية إلى اللاتينية كان جيرارد الكريموني (المتوفي سنة ١١٨٧م الانكليزي اللسان والمنشأ والمتوطن في اسبانيا) حيث قام بترجمة أكثر من سبعين مؤلفا عربيا وكان نزيها وذا كفاءة عالية في الترجمة وحسن الاختيار للكتب التي ترجمها ومن ذلك القسم الجراحي من كتاب التصريف للزهراوي وكتاب المنصوري للرازي والقانون لابن سينا. وكان موسوعيا في الترجمة حيث قام أيضا بترجمة كتب في علوم أخرى غير الطب كالفلك والفلسفة والرياضيات والأدب.

ومن بين المترجمين حنا الاشبيلي الذي ترجم بعض تآليف ابن سينا وقسطا بن لوقا والفرغاني



□ خارطة اسبانيا (الاندلس).

ودومنكس غند سالنوس بن داوود العبري وجند يسالفيني ترجم كليات ابن رشد وأرجوزة ابن سينا وتعليق ابن رشد عليها. كما ترجم كتابي النفس والشفاء لابن سينا. وهومانوس الدلماسي ترجم في تولوز كثيرا من كتب الطب والفلك. وفي تاريون ترجم إبراهيم بن عزرا مؤلفات البيروني.

وكان ادرلار الباني أول المستشرقين الانكليز الذي ترجم للاتينية عام ١١٢٦ فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات والذي كان لكتاباته أثر فعال على روجر باكون وعلى تأسيس الطريقة العلمية التي نسبت لباكون ويقال بأن أحد الأساتذة العرب ذهب إلى انكلترا من اسبانيا لالقاء محاضرات في الطب.

ولا بد من ذكر شيء عن الراهب فيتوس الذي كان له الأثر الأكبر في نقل آراء ابن النفيس حول الدورة الدموية الرئوية.

ولد سرفيتوس في اسبانيا سنة ١٥١١م وقرأ في سرقسطة في اسبانيا ثم تولوز في فرنسا وبازل في سويسرا ثم ذهب إلى باريس وعمل مع فيزاليوس في التشريح وفي سنة ١٥٥٢ الف كتابا ضخما اسمه بالعربية «إعادة المسيحية» حكم عليه بالموت حرقا بسببه وفي هذا المؤلف وصف مرور الدم من الشريان الرئوي إلى الوريد الرئوي عن طريق الرئة.

٢ ــ طريق فرنسا:

ولقد كانت كاطولينا أيضا مركزا آخر لاشعاع العلم العربي وهي تشكل جزءا كبيرا من فرنسا الحالية وتعتبر مونبليه إحدى مدنها الساحلية التي كانت في البداية عبارة عن محطة صغيرة لقوافل المسافرين بين ايطاليا والاندلس ثم ارتفع شأنها في القرن الحادي عشر فشرع العلماء العرب أو المتحلين بالثقافة العربية يتدفقون إليها حيث وضعوا فيها أسسا لمعهد علمي عظيم وبذلك تحولت هذه القرية الصغيرة إلى مركز كبير للتجارة والعلوم والثقافة. ولما بدأت شمس المدنية، العربية بالغروب عن الأندلس في نهاية القرن الثاني عشر بسبب التعصب الشديد الذي اتصف به ملوك الاسبان هجر عدد كبير من العلماء العرب الأندلس قاصدين مونبليه وبذلك كان لهم الفضل في رقيها، وفي سنة ١٢٢٠م قام الكاردينال كونراد بتأسيس مدرسة مونبلييه ونظمها على شبه مدارس الطب الاسلامية: واحتل الطب الاسلامي مركز الصدارة في برنامج التدريس فيها طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر، فكان الأساتذة يشرحون كتب ابن سينا والرازي والزهراوي.

ويعطينا كتاب الدروس والمفاتيح فكرة دقيقة عن برنامج مدرسة مونبلييه من سنة (١٤٨٩ إلى سنة ١٥٠٠م). واللائحة التالية تبين عدد الكتب التي كانت تدرس كل عام وأهمية المكانة التي كان يمثلها ابن سينا في تلك الأيام[٥].

والشخصيات التي خدمت في مونبلييه جيرارد كريموني، والامينجو بلازن، زبيارودي كابستان، وجان حكيم، وأرنولد فيلانوف الذي ساح طلبا للعلوم العربية والذي يعتبر أخصب المؤلفين إنتاجا بالنسبة لزمانه وأكثرهم تأثرا بالآراء الطبية العربية ومن مؤلفاته القانون الصحي.

ويقال بأن مدرسة مونبلييه في ذلك الوقت أصبحت مركزا رئيسيا لدراسة الطب وتميزت على مدرسة باريس بكثرة ما فيها من المخطوطات الطبية المهمة وبالأخص العربية منها.

وقد حصل في باريس ما حصل في مونبلييه وساليرنو من قبل، فكان تنظيم وبرنامج تدريس المدرسة نسخة من السابقتين، وقصة لويس الحادي عشر مع كتاب الحاوي للرازي تشير إلى قيمة هذا الكتاب في ذلك العصر.

فقد أراد هذا الملك أن يضع نسخة من الحاوي في مكتبته، وطلب من مكتبة الجامعة إعارته إياه لنسخه. وبعد مناقشات عديدة بين الأساتذة قررت الجامعة إعارة الكتاب بعد الحصول على كفالة مالية، مشكلة من (١٢ طاقما فضيا للمائدة ومئة ريال من ذهب).

٣ ــ طريق صقلية وايطاليا:

كانت صقلية تعيش التأخر والجهل قبل أن يفتحها العرب المسلمون وقد تم فتحها أيام بني الأغلب في أوائل القرن الثالث الهجري حوالي سنة (٨٧٧م) بقيادة أسد بن الفرات. ومن ثم وبعد أن مدنوها أصبحت من أهم المراكز لنشر

	١٤٨٩	١٤٩٠	١٤٩١	١٤٩٢	١٤٩٣	١٤٩٤	١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٧	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠
ابن سينا	٤	٣	٤	٤	٦	٥	٥	٤	٦	٥	٤	٣
جالينوس	٢	٠	٢	٠	٣	٢	٤	٢	٣	٢	١	٤
ابقراط	١	٠	٠	١	٢	١	١	٠	١	١	١	١

عدد الكتب في برنامج مدرسة مونبلييه

وقد بقي الطب الاسلامي يحتل مركزا مهما في تاريخ الدروس حتى منتصف القرن السادس عشر، وكان الأساتذة المستعربون (وهم الذين يدرسون كتب الأطباء العرب دون غيرهم) كثرة بالنسبة لبقية الأساتذة، ومن بين الأساتذة

الثقافة العربية الاسلامية في أوروبا.

فأنشئوا في باليرمو العاصمة أول مدرسة للطب في أوروبا ومنها انتشر الطب إلى ايطاليا وكدليل على التأثير الفاعل للثقافة العربية في ايطاليا في تلك الحقبة إنشاء مدرسة لتعليم اللغة

العربية في جنوا وإدخال كثير من الألفاظ والاصطلاحات الغربية إلى اللغة الايطالية.

وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلوا فيه عاملا مباشرا في ازدهار الثقافة والعلوم والفنون فيها حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاثة في ذلك الزمن وهي اللاتينية واليونانية والعربية وتم نقل المؤلفات من لغة إلى أخرى وبذلك أصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة.

نبغ كثير من المترجمين في صقلية منهم فرح بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم «فاراجوت» أو «فراريوس» الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة البغدادي. وألف سكوت أكثر كتبه في صقلية.

ونبغ في صقلية كثير من الأعلام العرب منهم الادريسي الجغرافي العربي المشهور الذي رسم الكرة السماوية وخريطة العالم لأول مرة. أما أشهر من نبغ في الطب من العرب فكان ابن جلجل الصقلي صاحب كتاب تاريخ الأطباء والحكماء. وأبو سعيد بن إبراهيم المغربي الصقلي مؤلف كتاب المنجح في التداوي وأحمد بن عبدالسلام الشريف الصقلي صاحب كتاب الأطباء في الأمراض من الفرق إلى القدم.

لم يتوقف الزحف العربي الاسلامي في حدود جزيرة صقلية وما جاورها، بل اتجه لفتح ايطاليا نفسها فقاموا بغزوات ناجحة شملت وسط ايطاليا وشمالها بما فيها روما. وقد ساعدت هذه الفتوحات على نشر الثقافة والعلوم العربية وعلى تقوية الصلات العلمية مع الثقافة اللاتينية لدى الطليان فنتج عن ذلك التقارب حركة علمية نشطة دفعت بأوروبا سراعا وبشكل أساسي في طريق الصحوة العلمية والنهضة الفكرية.

وإن مركز الاشعاع الطبي في جنوب ايطاليا كان في مدينة ساليرنو حيث ازدهر الطب العربي على يد أساتذة من العرب وغيرهم وفي أواخر القرن الحادي عشر وبفضل عدد من المترجمين الأكفاء أمست هذه المدرسة معينا لا ينضب للثقافة والعلوم العربية ودعامة صلدة للنهضة



□ الطبيب والفيلسوف العربي ابن سينا

العلمية الأوروبية وزعيمة مدارس الطب في أوروبا.

كان على رأس هؤلاء المترجمين قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ـ ١٠٨٧م) الذي ولد في قرطاجة في تونس وساح في البلاد العربية حيث اتقن اللغة العربية بجانب معرفته للغة اللاتينية.

وانتقل إلى ايطاليا حيث اتصل بأمير مدينة ساليرنو جيزوفلو وأخيه الطبيب. ثم أمضى معظم حياته في دير مونت كاسينوا حيث قام بترجمة الكتب العربية وبالتأليف. عمل بعض الوقت في مدرسة ساليرنو الطبية، فأثر فيها تأثيرا بالغا بترجمته عددا من الكتب الطبية العربية للاتينية، وإدخاله التعليم الطبي العربي فيها. كما أنه كان يكتب أيضا في (القانون الصحي) الذي كان يحرره عدد من أساتذة مدرسة ساليرنو. ويذهب

البعض إلى أنه كان مسلما ولكنه كتم دينه خوفا من الاضطهاد الذي كان سائدا ضد الاسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية.

من الكتب التي قام بترجمتها كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي ابن العباس المجوسي، وكتب إسحق بن سليمان الاسرائيلي في البول والحميات، وكتب جالينوس وابقراط المعرّبة سابقا إلى اللاتينية. ويأخذ عليه البعض عدم نزاهته حيث كان ينقل من الكتب العربية وينسبها لنفسه وعلى الرغم من ذلك فإن أثر كتبه بقي لفترة طويلة من الزمن في أوروبا مما حدى بالكثيرين تسميته برائد الطب العربي في أوروبا. ومن أشهر التراجمة في ساليرنو عدا قسطنطين الافريقي كان «فرج بن سالم» الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي ومؤلفات حنين بن إسحق إلى اللاتينية.

وكان لتلاميذ مدرسة ساليرنو أثر بالغ في نقل العلم إلى سائر جامعات أوروبا، حيث ذهب قسم منهم إلى مدرسة مونبلييه وآخرين إلى نابلي، وذهب بيير جيل دي كوربي بعد ذهابه إلى نابلي إلى جامعة باريس. واستمرت هذه المدرسة محتفظة بهذه المكانة العلمية حتى سقوط مدينة ساليرنوا في يد هنري السادس، عندها تدهورت الحركة العلمية فيها واضمحلت مدرسة ساليرنوا نهائيا في سنة ١٤٠٠م.

ثم سارت أغلب الجامعات الأوروبية مثل باليرمو ومونبلييه وبدوا وباريس وأوكسفورد بنفس الطريق معتمدة العلوم العربية أساسا في برامجها التدريسية، حتى أن الطب العربي ساد تعليم الطب في أوروبا طيلة القرون الوسطى.

٤ ــ الحروب الصليبية:

استمرت هذه الحروب بين (١٠٩٧ ــ ١٢٧٢م). تعرف الغربيون خلالها على العلوم العربية وتعلموا اللغة العربية، وبرز منهم علماء أحبوا هذه اللغة وتتلمذوا على الأساتذة العرب، منهم ادلارد بات الذي اشتهر بنشاطه العلمي بين (١١١٥ ــ ١١٤٢م)، حيث عاش في الشرق لسنوات عديدة وألف كتبا عديدة فيها الكثير من الآراء العلمية العربية، كما قام بترجمة عدد آخر من الكتب العربية إلى اللاتينية.



□ الطبيب العربي: ابن النفيس.

وهناك مترجم آخر نشط في تلك الفترة وهو ستيفانو دوبيزا الذي عاش في انطاكية نحو سنة ١١٢٧م وقام بإعادة ترجمة كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي.

وكان في طليعة ملوك الغرب الذين استفادوا من العلوم العربية (فردريك الثاني) امبراطور المانيا الذي عقد اتفاقية مع الملك الكامل الأيوبي خلال الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ــ ١٢١٩م) حيث اتصل بنوابغ علماء العرب، فقرب إليه عبدالحق بن إبراهيم بن نصر فيلسوف الأندلس حينذاك، كما درس وترجم الكثير من الذخائر العربية وأهدى الكثير من الكتب الطبية والفلسفية إلى جامعة بولونيا. وبعث بمسائل رياضية وفلسفية إلى الملك الكامل وقد نجح في حلها عالم مصري وآخر من الموصل في العراق. وكان له مترجم ومنجم يسمى (ثادري تيودور) وهو مسيحي من انطاكية بالشام يقوم بترجمة الكتب العربية. وكان يعمل عنده أيضا (ميخائيل سكوت) حيث وضع له نقلا عن العربية خلاصة لاتينية لمؤلفات أرسطو مع شرح ابن سينا وسماه «ملخص ابن سينا». وساهم المرضى والأطباء من المحاربين العائدين أيضا في نقل كثير من الوصفات الطبية العربية إلى الغرب وكان المحط الرئيسي لهم لدى العودة مدينة ساليرنو حيث أفادوا في دفع الحركة الطبية في مدرستها.

٥ ــ الرحلات:

يعود فضل انتقال النفوذ العلمي العربي من الشرق إلى الغرب عن طريق الرحلات إلى نوعين منها:



□ لويس الحادي عشر.

نوع قام به العلماء العرب انفسهم نتيجة الاتصال المستمر بين الشرق والغرب عبر افريقية واسبانيا من جهة والعواصم العربية من جهة أخرى «ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الأفكار والآثار العلمية، ولم تكن الرحلة إلى مكة للحج فقط، بل كانوا يعملون الرحلة في طلب العلم نفسه وقد عين لوكلير مواد من هذا القبيل فقال، إن محمد بن عبدون ذهب من الأندلس إلى مصر وكان يمارس التطبيب في مستشفى الفسطاط وأن ولدي يونس الحراني ذهبا يحصلان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات كما ذهب عمر بن حفص إلى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب الأطباء من الغرب إلى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق إلى الغرب وتقصد سلاطين العرب في اسبانيا، فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلي والجواهر يؤتى بها من الشرق إلى الأندلس[6] حتى اجتمع في خزانة قرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في اربعة وأربعين مجلداً». ومن بين هؤلاء أبو مروان بن زهر الأندلسي الذي ذهب إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هنالك زمناً طويلاً[7].

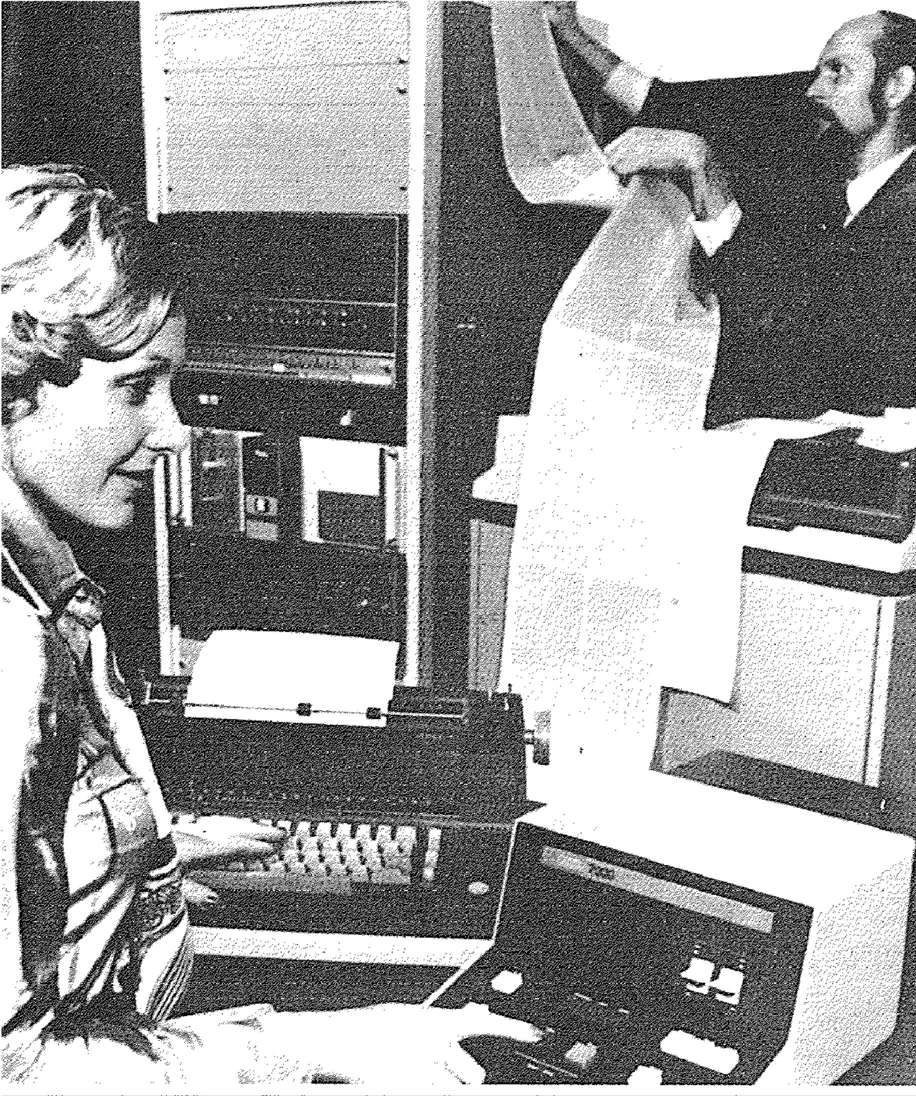
أما النوع الآخر من الرحلات فقد قام به الرحالة الغربيون طلباً للتجارة والسياحة وتلقي العلم. فعلى سبيل المثال (ماركوبولو) صاحب الرحلة السياحية المشهورة. و (ليوناردو دافنشي) الذي ولد في بيزا عام (١١٨٠م) وخلال عمله في التجارة في (بجاية) في الجزائر تعلم الحساب وزار طوروس وسبته وتونس وتردد على مكتبات الاسكندرية ودمشق وناقش كبار العلماء في القاهرة ودرس كل ما حوته مخطوطات كبار الرياضيين من الإغريق والهنود والعرب فنبغ في ذلك وبعد أن عاد إلى إيطاليا تنبه إليه القيصر فردريك الثاني وضمه إلى خلصائه من العلماء. فهناك ألف الكتب وعلم الغربيين الأرقام العربية والصفر العربي.

والطبيب الايطالي (الباجو) الذي عاش حيناً من الدهر في الشرق الإسلامي حيث ذهب خصيصاً لدراسة اللغة العربية وللاطلاع على النصوص العربية في أصولها وبخاصة مؤلفات ابن سينا والذي في سنة ١٥٤٧م نشر في البندقية ترجمة لاتينية لأجزاء كثيرة من شرح تشريح القانون[8] لابن النفيس والحاوي على افكار ابن النفيس حول الدورة الدموية.

ومن هؤلاء أيضاً تيودوروس الأنطاكي الذي قرأ للفارابي وابن سينا واقليدس ودرس الرياضيات دراسة عميقة على يد العالم العربي كمال الدين يونس (الذي ولد في الموصل عام ١١٥٦م وتعلم في النظامية ودرّس في الكمالية في الموصل والذي حل المسألة الهندسية التي طرحها فردريك الثاني) ثم جذبت تيودور شهرة فردريك الثاني فغادر الشرق ليعمل في بلاطه[9] مع جملة من كان عنده من العلماء في ترجمة الكتب العربية ونقلها.

الهوامش

(١) الشطي، د. أحمد شوكت: العرب والطب، ص ١٢٣.
(٢) غليونجي، د. بول: ابن النفيس ــ سلسلة أعلام الاسلام (٥٧)، ص ١٤٨.
(٣) خيرالله، د. أمين اسعد: الطب العربي، ص ٢٠٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
(٥) حجازي، الدكتور عبدالرحيم: الطب الاسلامي عامل اساسي في خروج اوروبامن عصر الظلام ــ بحث قدم للمؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي. بالأصل نقلا عن ارشيف جامعة مونبلييه الكتاب الخامس لسنة ١٧٦٧.
(٦) الشطي، د. أحمد شوكت: العرب والطب ص ١٢٤.
(٧) ابن ابي أصيبعة، ص ٥١٧.
(٨) غليونجي، د. بول: ابن النفيس. ص ١٤٢.
(٩) هونكة، سيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب. ص ٩١ ــ ٩٢.



البحث عن الوثائق

عبد التواب شرف الدين

على الباحث أن يتجه إلى البحث عن الوثائق والأصول التاريخية اللازمة لدراسته بما تشمله من المعاهدات أو المراسلات، أو التعليمات أو الأوامر أو المذكرات أو القوانين... الخ، والتي كانت تحفظ عادة عند الملوك أو الأمراء أو عند بعض رجال الدين، أو عند بعض الزعماء أو رجال السياسة أو رجال الحرب أو عند عامة الأفراد أو عند تجار الوثائق.

وليس من الضروري أن توجد وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ، إذ تنطمس آثار كثير منها وتزول دلالته، بتعرضها في ظروف مختلفة للتلف أو الضياع، مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة في التخلص منها وإتلافها عمدا، حينما تكون في حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية، أو من يهمه منع الأفكار، والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن في الوجود. وعلى ذلك فكثيرا ما يجد المؤرخ فجوات في مجرى التاريخ، لا يمكنه أن يملأها وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد، وليس هناك ما يمكن أن يعوض عن ضياع تلك الوثائق(١).

١ ـ البحث عن الوثائق قديما:



لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية، وإذا كانت الحوادث التي قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذي عاشوا فيه فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث، ويقارنون بينها، وينقدونها، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية.

على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائما لتعرض الروايات الشفوية للتحريف والتغيير، وإن كان تدوين الروايات الشفوية من شأنه أن يوقف، في الغالب، ما يكون قد دخل عليها من التغيير عند الحد الذي سجلت فيه[٢].

وقد حولت الفتوحات الاسلامية مجرى الروايات المأثورة عن القبيلة دون تغيير في خصياتها، بينما حافظت الروايات الجديدة محافظة واسعة النطاق على الاتصال القديم بين الشعر والنثر إلى جانب المبالغة وعدم الدقة المعهودين في الكتابات القديمة، وهذا من شأنه التأثير في التاريخ الاسلامي من حيث أن تلك الروايات المأثورة هيأت المواد التي استقى منها المؤرخون المحدثون في تدوين تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية.

لقد اعتمد هشام بن محمد الكلبي المتوفي في عام ٢٠٤هـ (٨١٩م) في بحوثه على المصادر والوثائق المكتوبة، وقد خطا هذا العمل المقول باستناده إلى الوثائق المحفوظة في كنائس الحيرة والأسانيد الفارسية التي ترجمت له، خطوات واسعة نحو التأليف التاريخي القائم على أساس العلم.

وفي صدر الاسلام، نجد بداية تأليف التاريخ العلمي باللغة العربية، وهي ترتبط بالبحث في حياة النبي وأعماله هو ما يتتبع رجوع أصل هذا التنظيم إلى مجموعة الأحاديث النبوية، وبخاصة الأحاديث المتصلة بغزوات النبي، وكانت المدينة المنورة، موطن الدراسة ومعهدها ولم يختص أحد التأليف في المغازي قبل القرن الثاني للهجرة في مواطن أخرى غير المدينة، وذاك الارتباط بالأحاديث الذي ترك أثر لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي بالاعتماد على الاسناد يفسر التغيير البالغ الذي ظهر منذ ذلك الحين في الصفات المميزة لرواية حوادث التاريخ وتمحيصها عند العرب.

وقد اعتمد محمد بن سعد المتوفي سنة ٢٣٠هـ (٨٤٤ ـ ٨٤٥م) على الوثائق والأسانيد التي وقعت تحت يده في مصنفه: «كتاب الطبقات» في سيرة النبي وصحبه والتابعين.

وما برح في مجال الشك وجود وثائق محفوظة في المدينة كانت في ذلك العهد من المراجع التي يرجع إليها، وقد توافرت الدلائل على وجود وثائق في العصر الأموي بدمشق والعراق معا. وفي أوائل القرن الثالث، اضطره التقدم من جديد في طريق التأليف التاريخي بفضل اتساع نطاق الحضارة المادية، وبفضل ظهور استعمال الورق الذي أسس أول مصنع له في بغداد عام ١٧٨هـ (٧٩٤ ـ ٧٩٥م).

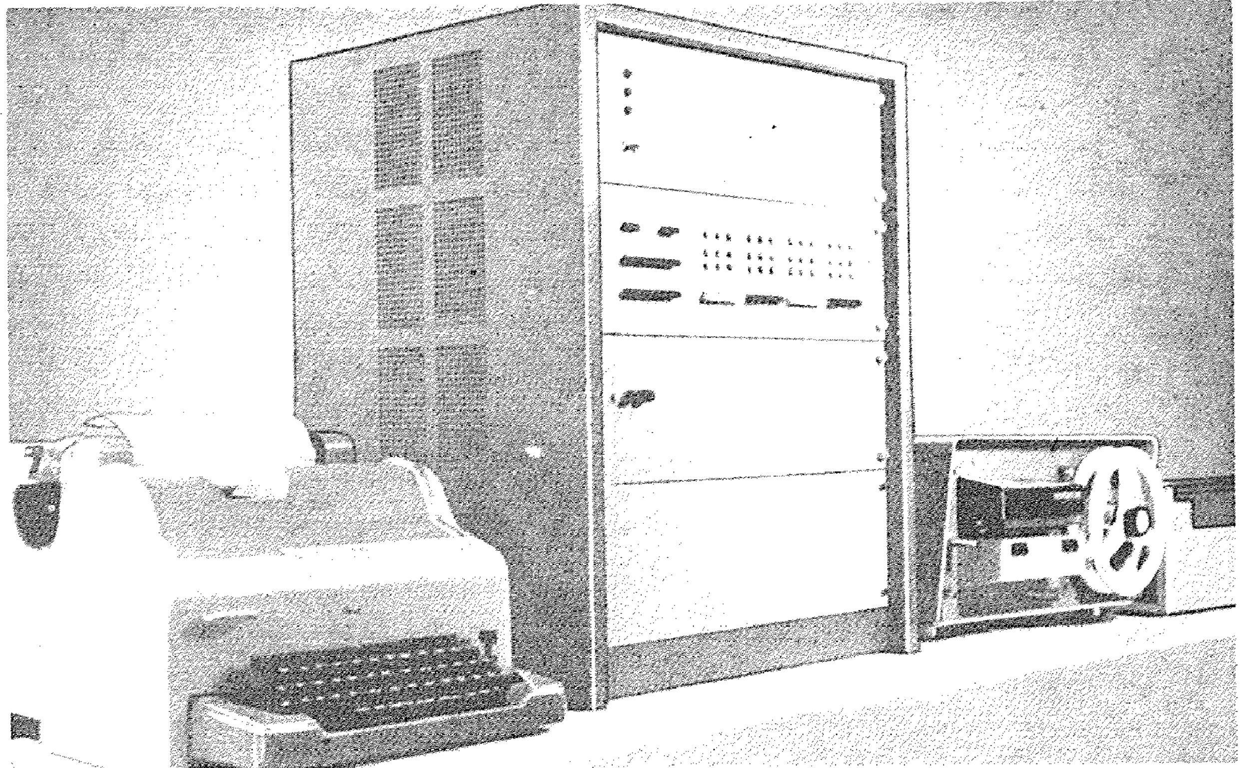
ولكن هذا الابتكار لم يقض من فوره على عادة تناقل مجموعات المواد، بوساطة الرواة، تلك الطريقة التي ظلت مرعية إلى نهاية القرن الثالث.

إن بداية التأليف التاريخي بمعناه الأعم، أي التوفيق بين المواد المستمدة من السيرة والرسائل ومصادر أخرى، بغية إدماجها في رواية تاريخية واحدة متماسكة، إنما ترجع إلى منتصف القرن الثالث، وأقدم مؤلف سار على هذا النحو والنهج القديم، هو أحمد بن يحيى البلاذري المتوفي عام ٢٧٩هـ (٨٩٢م)[٣].

٢ ـ البحث عن الوثائق في فهارس المكتبات:

رأينا كيف أن طريقة التأليف التاريخي اعتمدت على الرواية في نفس الوقت، اعتمدت على ما أمكن الوصول إليه من وثائق وبعد استخدام الورق، وما حدث من تقدم حضاري، ظهرت الفهارس التي تشتمل على محتويات المكتبات ودور الوثائق وبهذا سهل على الباحثين تحديد الوثائق الخاصة بموضوعاتهم.

إن التاريخ يصنع من وثائق، والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم، ومن الواضح أن أي فحص نقدي، وأي تأويل للوثائق يسبقه التساؤل، عما إذا كان ثم وثائق،



وما مقدارها، وما مظانها. وقد أطلق على موضوع البحث عن الوثائق في المانيا اسم الهورسطيقا.

ولن تكون الهورسطيقا ميسورة تماما إلا إذا وضعت إثبات وصفية لكل مستودعات الوثائق الموجودة، وكانت هذه الاثبات مشفوعة بلوحات وفهارس أو كانت لها كشافات عامة. بيد أن العلماء المحصلين والمؤرخين كثيرا ما يكونون في حاجة إلى معلومات عن الوثائق لا تهيؤها الاثبات والفهارس الوصيفة لأجيال طويلة لقيت فيها الكثير من الاهمال، ولكنها نقلت أخيرا إلى مخزن جديد تتوفر فيه وسائل الاضاءة والنظافة، كما أصبحت موضع اهتمام المسؤولين بالدير وعنايتهم.

وهذه المجموعة من المخطوطات والوثائق دونت فيما بين القرن السادس والقرن التاسع عشر، ويبلغ عدد المخطوطات ٣٣٣١ مخطوطة. مكتوبة بإحدى عشر لغة هي:

العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافونية والجورجيانية واللاتينية والبولونية والتركية والروسية.

والجانب الأكبر منها في اللاهوت والكتب الكنسية والدينية وقليل منها في الفلسفة والموسيقى والرياضة — والفلك والتاريخ والجغرافيا والاجرومية والطب والقانون.

أما الوثائق فيبلغ عددها (١٧٤٢) وثيقة، منها (١٠٧٢) وثيقة باللغة العربية و (٦٧٠) وثيقة باللغة التركية، وهي تتضمن عهود ومراسيم (٥)، ومنشورات وفرمانات (٦)، ومعاهدات وفتاوى وحجج (٧)، ومحاضر وأوامر إدارية وقد ظهرت عدة فهارس وكتالوجات لمحتويات مكتبة دير سانت كاترين في سيناء من وثائق ومخطوطات، وذلك في الفترة من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٩٥٢، وقد تضمن بعضها جانبا من المخطوطات، بينما كان البعض الآخر أكثر شمولا فاحتوى بيانا بكافة المخطوطات والوثائق، ومن أهم هذه الفهارس:

١ — فهرست «جارت هاوزن» الذي صدر سنة ١٨٨٦م.

٢ — فهرست «بتشفتن» سنة ١٩١١ — ١٩١٤م.

٣ — فهرست «هافن» سنة ١٩٢٣م.

٤ — فهرست «مار» سنة ١٩٤٠م.

وقد تعرضت هذه الفهارس لبعض المخطوطات اليونانية.

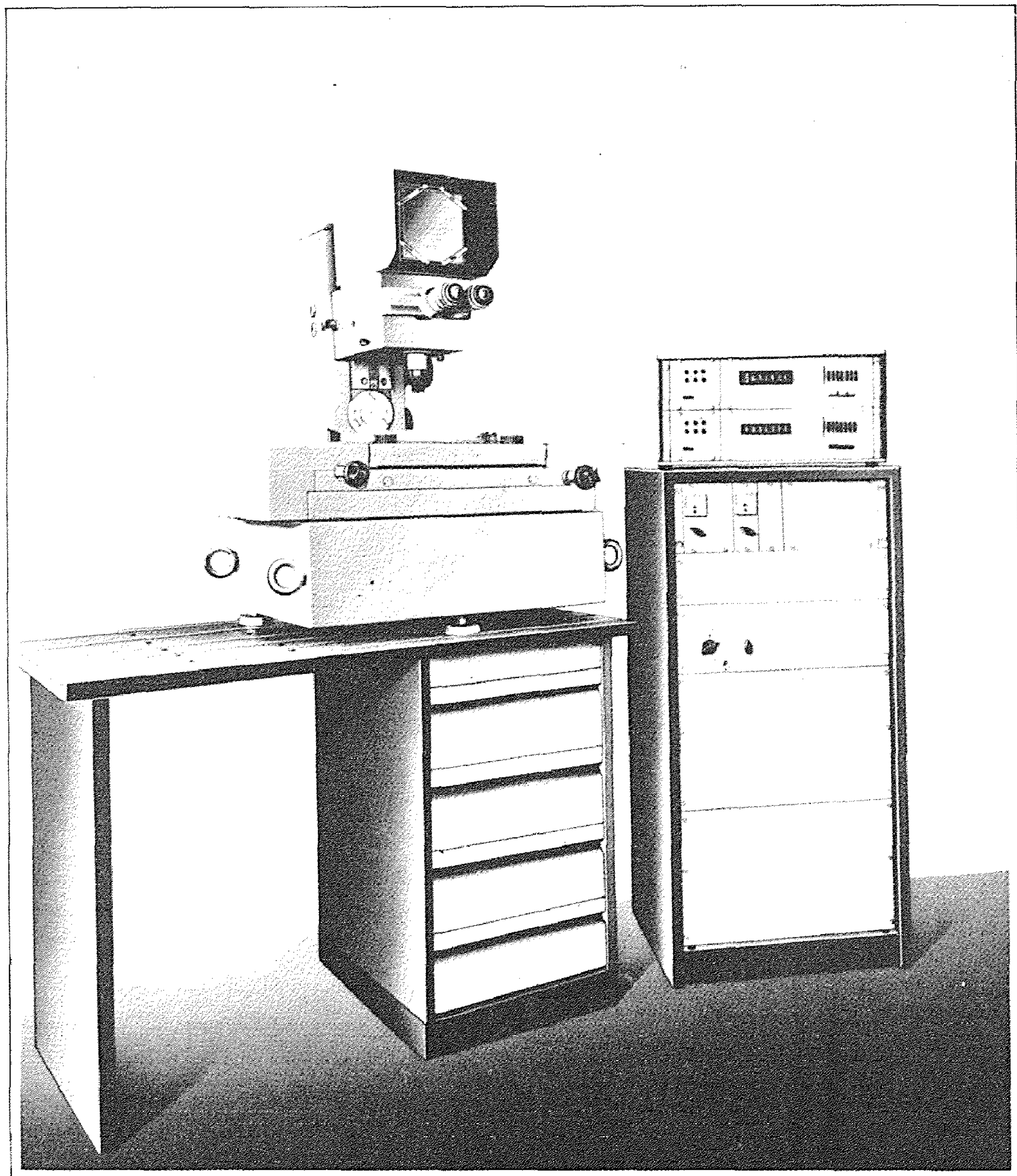
٥ ــ فهرست «مس لويس» سنة ١٨٩٤.
وقد تعرض لبعض المخطوطات السريانية.
٦ ــ فهرست «جبسن» سنة ١٨٩٤.
وقد تعرض لبعض المخطوطات العربية.
٧ ــ فهرست «مراد كامل» وهو يقع في جزئين، وقد صدر عام ١٩٥١م، ويتضمن جميع مخطوطات ووثائق مكتبة سانت كاترين، وقد قام بإعداده بناء على طلب الجامعة العربية.
٨ ــ فهرست البعثة الأميركية الذي ظهر عام ١٩٥٢م ويقتصر على المخطوطات والوثائق التي قامت البعثة الاميركية بالاشتراك مع بعثة جامعة الاسكندرية بتصويرها عام ١٩٥٠.
٩ ــ فهرست عزيز سوريال عطية، وهو مختصر ويشتمل على جميع المخطوطات والوثائق العربية بمكتبة الدير، وقد صدر بالانكليزية عام ١٩٥٤ ونشرته دار هوبكنز بالولايات المتحدة الأميركية.
١٠ ــ الفهرست التحليلي للمخطوطات والوثائق العربية صدر منه الجزء الأول، وهو ترجمة للأصل الانجليزي الذي ألفه عزيز سوريال عطية، وهو تحليل محتويات مكتبة دير سانت كاترين من الوثائق والمخطوطات التي تشتمل عليها ومكتوب باللغة الغربية[٨].

٤ ــ البحث عن الوثائق في دور الوثائق الأخرى:

إن كثيرا من الوثائق العربية والتي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، قد فقدت جميع نسخها الأصلية التي كانت محفوظة في دواوينها الأصلية، كما لم يصلنا من النسخ الأصلية لهذه الوثائق في البلاد الأجنبية سوى عدد بسيط جدا، فعلى سبيل المثال، لا الحصر، قدر العلماء عدد الوثائق العربية الأصلية ــ التي صدرت عن الدواوين المصرية، والمحفوظة في دور الوثائق الأوروبية، بثلاث وعشرين وثيقة وهذه الدور هي:
دار البندقية، وفلورنسة، وبرشلونة، ويعتبر هذا العدد من الوثائق التي حفظتها هذه الدور، قليل جدا، إذا ما قيست بالحجم الحقيقي للوثائق العربية الخاصة بتاريخ علاقات كل مدينة من هذه المدن مع مصر الاسلامية في عصورها المتعاقبة، الفاطمية والأيوبية والمملوكية، هذا فضلا عن ضياع جميع الوثائق العربية التي كانت محفوظة في دور الوثائق الأوروبية الأخرى التي كانت تربطها بمصر علاقات تجارية، غير أنه يلاحظ في نفس الوقت أن معظم دور الأرشيف والوثائق في هذه المدن قد حفظت الجانب الأكبر من الترجمات الخاصة بهذه الوثائق العربية سواء باللغة اللاتينية أو باللغات الفرنجية المشتقة منها، هذا بالاضافة إلى الوثائق الأوروبية المرتبطة بهذه العلاقات والتي تعتبر مكملة للوثائق العربية في دراسة تاريخ هذه العلاقات[٩].

٥ ــ البحث عن الوثائق في كتب مصطلح الوثائق:

إذا كانت الوثائق العربية الأصلية التي كانت محفوظة في ديوان الانشاء في مصر، على سبيل المثال، وهو الديوان الذي كان يعتبر مسؤولا عن إصدار وحفظ أصول وصور الوثائق قد فقدت جميعها، فإنه مما يعزينا عن ذلك، أن صورا من هذه الوثائق، وهي أكثر نسبيا مما حفظته لنا دور الوثائق قد ضمنها بعض مؤرخي مصر الاسلامية كتبهم[١٠].
ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخين من عمل منهم في ديوان الانشاء مثل:
(أ) محي الدين بن عبدالظاهر: «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور». القاهرة ١٩٦١. انظر الصفحات ١٥٦ ــ ١٦٣، ١٦٥ ــ ١٦٩.
(ب) شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري: «مسالك الابصار» في ممالك الامصار (لا يزال مخطوطا). وقد أشار القلقشندي في أجزاء كثيرة من موسوعته «صبح الاعشى» إلى أنه ينقل عنه.
(ج) القلقشندي، أبي العباس أحمد: «صبح الأعشى في صناعة الانشا». القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨ ــ ١٤ جزءا.
انظر: الجزء السادس ص ٢٧٤؛ الجزء التاسع ٢٥١؛ الجزء الثالث عشر ٢٩٠، ٣٢١، ٣٤٠؛ الجزء الرابع عشر ٧٣، ١٠٩.
فهؤلاء أتاح لهم عملهم في ديوان الانشاء لفترات زمنية طويلة نقل نسخ عديدة مما كان

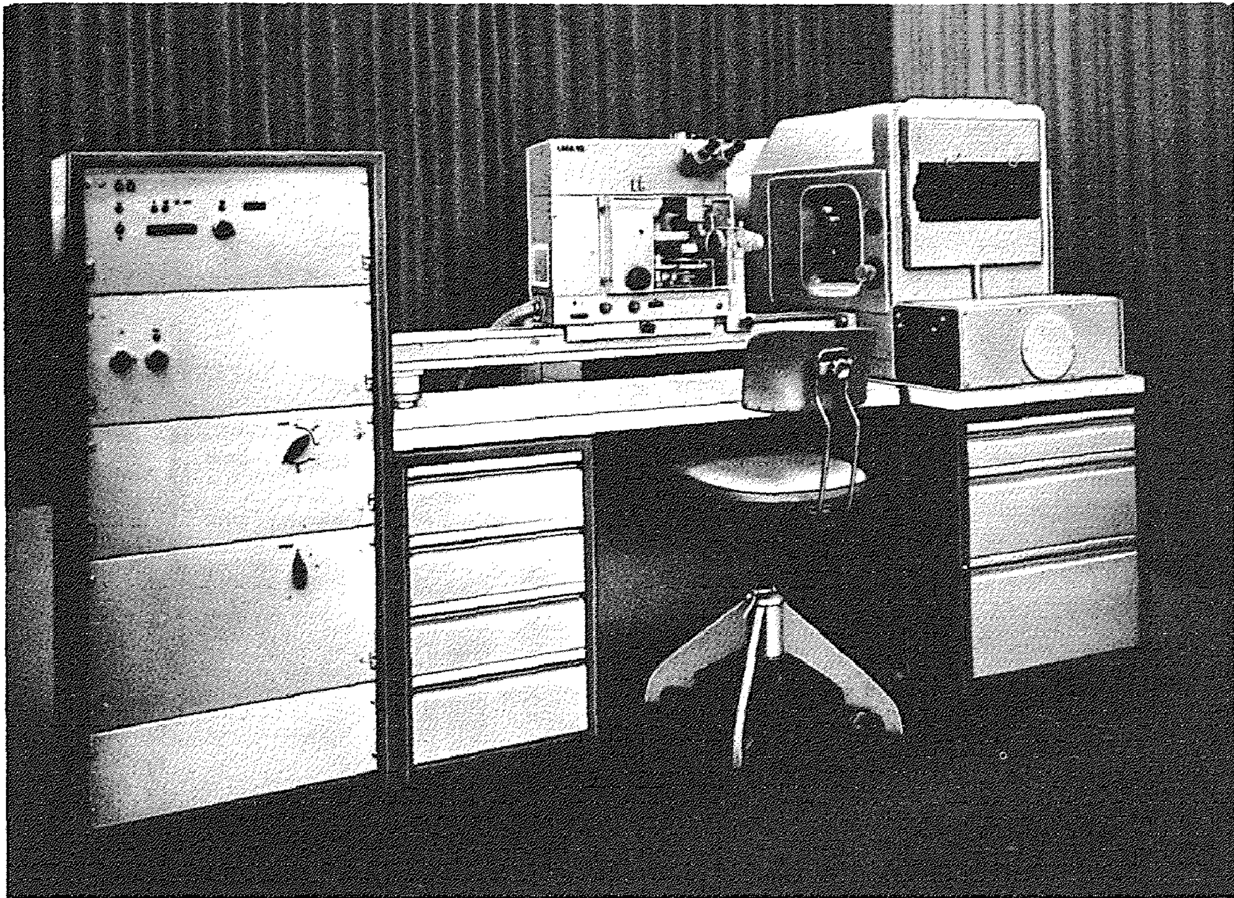


تحت يـد كل منهم من الوثـائق المحفوظة في الديوان.

٦ ـ نموذج تطبيقي لمحـاولات البحث عن الوثائق:

تحاول الدول جاهـدة الرجوع إلى وثـائقها الأصلية، وتصحيح تاريخها بالاستناد إلى هذه المصادر الهامة، وفيما يلي نرى محاولات إحدى الدول العربية الفتية وهي دولة الكويت:

وهي دولة ناشئة أرادت كتابة تاريخها من واقع الوثائق فبحثت في كل المراجع، وفتشت عن الرواة المعاصرين والمؤرخين الموثوق في رواياتهم، وشكلت اللجان العلمية لهذا الغرض وكان من اختصاص مركز التراث القومي بجامعة الكويت، تجميع الوثائق القومية لتوضع تحت تصـرف



الباحثين عن تاريخ الكويت والخليج العربي، ومن أهم الوحدات الهامة بمركز التراث القومي.

وحدة الوثائق والمخطوطات

وتقوم بالخدمات الوثائقية التالية:

(أ) البحث عن أماكن وجود الوثائق والمخطوطات التي تهم الكويت والخليج العربي سواء لدى الأفراد أو المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة وغيرها بالبلاد العربية والأجنبية.

(ب) الحصول على هذه الوثائق والمخطوطات في صورتها الأصلية أو على هيئة ميكروفيلم أو ميكروفيش أو زيروكس أو غير ذلك من وسائل الاستنساخ الحديثة.

(ج) تنظيم هذه الوثائق والمخطوطات، وفهرستها وتسجيلها والقيام بإجراءات حفظها وصيانتها.

(د) الخدمة المرجعية من هذه الوثائق والمخطوطات[11] وقد قسم الباحثون[12]، وثائق الكويت بما يشمل ذلك منطقة الخليج العربي إلى الأقسام التالية:

اولاً — سجلات وزارة الهند:

(أ) وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية وسجلات للوكلاء التابعة لها.
(ب) وثائق المكتبة السياسية والسرية.
(ج) المذكرات السياسية السرية.
(د) وثائق القسم السياسي والسري لوزارة الهند.
(هـ) المراسلات والأوراق الخاصة.

ثانيا — مكتب السجلات البريطانية:

(أ) سجلات وزارة المستعمرات.
(ب) الأوراق السرية والخضراء.
(ج) أوراق مجلس الوزراء البريطاني.
(د) الأوراق والمراسلات الخاصة.
(هـ) سجلات وزارة الخارجية البريطانية.

ثالثا — المصادر الأولى الخاصة بالكويت

والخليج العربي المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني.

رابعا ــ وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة.

خامسا ــ ما دونه الرحالة الأوروبيون في هذه الفترة.

سادسا ــ الرواية المحلية الكويتية.

سابعا ــ الكتب العربية والافرنجية.

وبعد... فالأمل كبير في الجهود الدولية التي تبذلها الهيئات الدولية.

مثــل:

١ ــ المجلس الدولي للوثائق.

٢ ــ الفرع الاقليمي العربي للوثائق ــ التابع للمجلس الدولي للوثائق.

٣ ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٤ ــ المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم.

وذلك في سبيل البحث عن الوثائق وتجميعها والاستفادة منها وتيسير ما تشتمل عليه من معلومات علمية للباحثين، وقد ظهرت بوادر هذه الجهود في نتائج الاجتماعات التي عقدها الفرع الاقليمي العربي للمجلس الدولي للوثائق (عربيكا) في روما، يوليو عام ١٩٧٢، وفي بغداد، سبتمبر ١٩٧٣(١٣).

المــراجــع

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨، ٦٩.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة). القاهرة، دار الشعب، مادة تاريخ.

(٤) لانجلوا وسينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية. ترجمة عبدالرحمن بدوي ضمن مجموعة نصوص اجنبية اخرى تحت عنوان: «النقد التاريخي» القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٣، ص ٥، ١٤، ٢٣، ٢٤.

(٥) عبداللطيف إبراهيم: في مكتبة ديرسانت كاترين ــ دراسة في الوثائق العامة في العصور الوسطى مجلة جامعة أم درمان الاسلامية، عدد (١)، ١٩٦٨.

وانظر ايضا: زينب محفوظ هنا: التطور الدبلوماتي لمراسيم ديوان الانشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري. القاهرة، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة، ١٩٧٠. (رسالة ماجستير محفوظة بالمكتبة العامة لجامعة القاهرة، رقم ٨٤٠).

(٦) حسن صبحي: من محفوظات دير سانت كاترين. مجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ــ ١٩٦٤، مجلد (١٨)، ص ٤٨ ــ ٦٢.

(٧) عبداللطيف إبراهيم: ثلاث وثائق فقهية من وثائق ديرسانت كاترين. مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٣، مجلد (٢٥)، عدد (١).

ويقوم كاتب هذا المقال بإعداد دراسة دكتوراه موضوعها «الوثائق العربية الخاصة في مكتبة دير سانت كاترين ــ دراسات ونشر» وذلك تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبداللطيف إبراهيم أستاذ الوثائق ورئيس قسم الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة والمعار حاليا لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

(٨) جوزيف نسيم يوسف: دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي المحفوظة في مكتبة ديرسانت كاترين في سيناء. مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٦٤، مجلد (١٨)، ص ١٧٩ ــ ١٨١.

(٩) احمد دراج: الوثائق العربية المحفوظة في دور الارشيف الأوروبية ــ مصر الاسلامية، بحث ضمن ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس ــ ابريل ١٩٦٩. جزءان، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠، ١٩٧١، ص ١٣١ ــ ١٣٢.

(١٠) عبدالتواب شرف‌الدين: دراسة لكتب المصطلح وطريقة إعداد الوثائق الديوانية رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٠. (محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة العامة، رقم ٨٢٣).

(١١) بهاء الابراهيم: مركز التراث القومي بجامعة الكويت. مكتبة الجامعة (الكويت) ١٩٧٣، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص ٥٦.

(١٢) جامعة الكويت: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي المحفوظة في دور السجلات البريطانية، عرض وتعليق الدكتور جمال زكريا قاسم. الكويت، جامعة الكويت، ١٩٧٢.

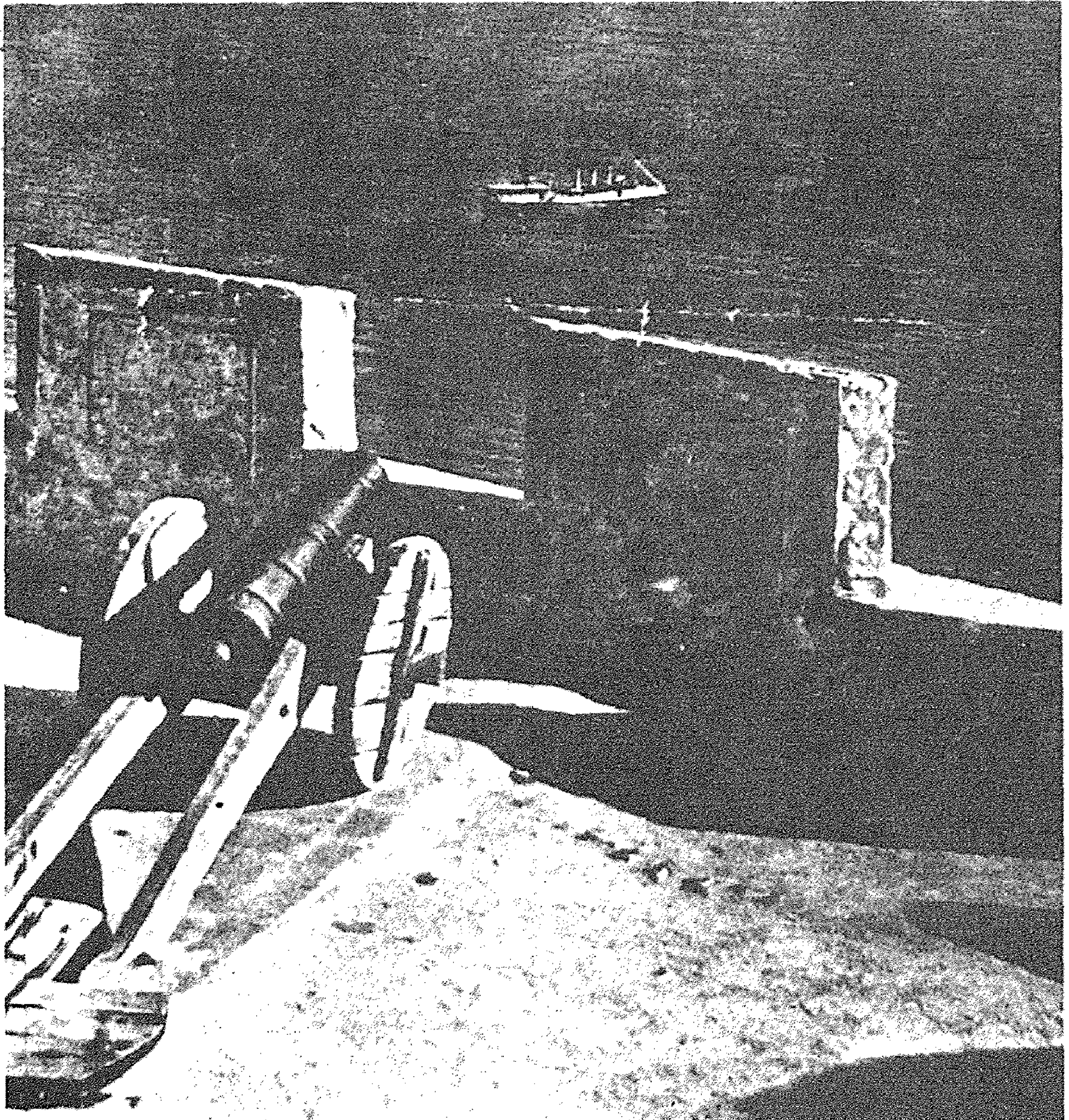
وانظر ايضا: احمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت. جزءان. الكويت، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣. الفصل الأول من الجزء الثاني ــ القسم الأول بعنوان: مصادر تاريخ الكويت في القرن التاسع عشر، ص ٢ ــ ٣١.

(١٣) جواد علوان محمد: المؤتمر الثاني للمجلس الدولي للوثائق ــ الفرع الاقليمي العربي. مكتبة الجامعة (الكويت)، ١٩٧٤، المجلد الثالث، العدد الثاني والثالث.

أغادير والمسألة المغربيّة

الإنزال الألماني في أغادير

د. رياض العالي



□ مدفع فرنسي يقصف المدمرة «بانتر» التي رست أمام شاطىء اغادير

في الفترة التي كانت القوى العظمى تقتسم القارة السوداء، حافظت دولتان، في مطلع القرن العشرين، على استقلالهما، وهما المغرب، والحبشة.

استمرت الحبشة في تحدي كل محاولات الاحتلال حتى عام ١٩٣٦. وكانت محاولة إيطالية جرت لاحتلالها عام ١٨٩٦، فاصيبت الجيوش الايطالية بضربة قاصمة. أما المغرب فحرص على عزلته، التي كانت توحي بتماسك الداخل، والحفاظ على حضارته التقليدية.

ويبدو ان الخلافات بين الدول الكبرى، هي التي سمحت للمغرب بالاستمرار على وضعه. ولكن الوضع لم يكن ليستمر إلى الأبد خاصة وان مطامع الدول الكبرى في المغرب، كان لا بد أن تلتقي على حساب شعب المغرب واستقلاله.

نظام الحكم في المغرب



كانت الأسرة الشريفية ــ الحاكمة حالياً ــ ما تزال تحكم المغرب منذ القرون الوسطى. وتنتمي الأسرة إلى النبي (ص) وتتولى السلطتين الدينية والدنيوية.

وكانت مدينة فاس، مركز إقامة السلطان، ولم تكن الواردات كافية. فالضراب قليلة، والبدو، وهم كثرة، لا يدفعون ضريبة. ورجال الاقطاع، وخاصة الأمراء ممن ينتمون إلى العائلة المالكة، يستغلون ولا يدفعون، ويسيطرون على مساحات واسعة، يسخرونها لمصالحهم الخاصة. فلا تستطيع الدولة أن تفرض عليهم قانونا. ولولا التعاضد بينهم وبين السلطة، ضد الأخطار الخارجية، والداخلية أحيانا، لتمزقت البلاد شر ممزق.

لفتت المغرب انتباه الغربيين منذ وفاة مولاي الحسن، عام ١٨٩٤. فجعل الحاجب با أحمد، أصغر أبناء السلطان الراحل، عبدالعزيز يرتقي العرش وعمره ثلاث عشرة سنة. واستغل با أحمد الفرصة فعين نفسه الوزير الأكبر، وظل يحكم البلاد حتى ١٩٠٠، تاريخ وفاته، موفرا كل المنافع لأسرته.

مع ذلك كان الوضع المالي، عند وفاة با أحمد جيدا، إذ لم تستنفد أموال الخزينة، كما تركها مولاي الحسن.

أما السلطان عبدالعزيز فلم يكن يكترث للحكم، وكان يفضل أن يكل أمره لمن يثق به، وقد وكله إلى الوزير فاضل غرنيط، أو وزير الحربية مهدي المنبهي. وكان ميالا إلى التقنية الغربية وأولع بشراء آلات التصوير، والفونوغرافات، أو الدراجات الهوائية. وهذا ما جعل الجمهور يلغط حول «السلطان الذي يتعامل مع أدوات الملحدين». وسهل لأخصامه سبيل الدس عليه، والدعاية ضده.

ومما حرّض عليه رجال الاقطاع والأمراء، انه وضع مشروعا للاصلاح المالي، والغى الامتيازات، ونظم جباية الضرائب فاستغل بوحَماره الوضع وأعلن نفسه سلطان، وحفز الكثيرين على الثورة ضد السلطان. وجعل تازا عاصمة مراكش الشرقية التي غدت تحت حكمه. ودحرت جيوش السلطان الشرعي، واندلعت الحرب الأهلية، وهذا ما لم تكن فرنسا ترغب فيه، بل كانت تتمنى أن يبقى المغرب موحدا تحت سلطة حاكم واحد.

فرنسا والفوضى المغربية

وضع حزب المعمرين، الذي يقوده أوجين إتيين، في خطته التدخل في المغرب، بعد أن امتنع عن ذلك طويلا. وكانت شخصيات جزائرية دعت إلى وضع المغرب تحت الحماية مثل تونس. وكان إتيين يفضل تطوير التأثير السياسي والاقتصادي الفرنسي، في المرحلة الأولى، لاقامة علاقات وطيدة، تمهيدا للمرحلة التالية.

□ د. رياض العالي: باحث في التاريخ والثقافة العربية.

أعلن، دولكاسي، الذي غدا وزيرا للخارجية في حزيران ١٨٩٨، أن فرنسا لا تستطيع الوقوف على الحياد تجاه أي تدخل خارجي في المغرب، الذي يقع على حدود الجزائر، التي كانت تحت الحكم الفرنسي. وكانت فرنسا تستطيع الاحتجاج بأي تدخل مزعوم، كأن تحرض رجال القبائل على التسرب عبر الحدود الجزائرية، فينقض الجيش لاحتلال مراكش.

وقد أتاح مقتل أحد التجار لدولكاسي أن يضع ركائز التدخل الأولى. ورحب السلطان عبدالعزيز بالاعتماد على فرنسا في إعادة الهيبة إلى مملكته، وفي قروض تغطي العجز الحاصل في الخزينة.

وطبق جونار، حاكم الجزائر الجديد، ومساعده الكولونيل ليوتي، السياسة الفرنسية الجديدة.

وحين كلف ليوتي بقطاع عين صفرا عام ١٩٠٥، توغلت قواته داخل المغرب حتى بلغت مولويا. ومنذ ذاك بدأ تمزق المملكة الشريفية، يتسارع، والقضية المغربية تأخذ حجما عالميا. ذلك ان عدة قوى بدأت تكشف عن اهتمامها بالقضية: إسبانيا التي تمركزت منذ عشرات السنين على الشاطىء الريفي. انكلترا التي كانت تجارتها ناشطة في المغرب وكان لها عدة مستشارين في بلاط السلطان. المانيا التي لم تظهر على المسرح إلا متأخرة، والتي لم يسعدها أن ترى دولة أخرى تسيطر على ارض افريقية، وتستغل مواردها، بينما مطامع الألمان كبيرة فيها.

كان دولكاسي يحاول جعل القوى الأخرى «لا تهتم» كثيرا بحوض المتوسط، من الجانب الافريقي. وقد كسب حياد ايطاليا بأن أطلق يدها في القسم الشمالي من ليبيا، اما المفاوضات مع اسبانيا عام ١٩٠٢ فكانت صعبة. فأظهر دولكاسي كرما زائدا بأن اعترف «بالحق التاريخي لجارنا الجنوبي» ووعد بإعطاء إسبانيا ثلث مراكش. ولكن طمع اسبانيا بالمزيد من الأرض المغربية جعلها تؤجل الجواب.

اما بريطانيا المستقرة في جبل طارق والحريصة على التجارة والممر الحيوي، فلم تبق مكتوفة الأيدي، وكانت تمثل وحدها أربعين بالمائة من التجارة في المغرب. ولم تكن العلاقات حسنة بين باريس ولندن. ولم تفد الاتصالات التي جرت



□ مولاي حافظ حين ثار ضد اخيه واعلن نفسه سلطانا.

عام ١٩٠٢. وفي نيسان ١٩٠٣ جرت المفاوضات بين الطرفين ٨ نيسان ١٩٠٤ وقعا اتفاقية (وقعها لانسدون عن بريطانيا، وبول كامبون عن فرنسا)، أعلنت فيها فرنسا عن تخليها عن اي حق في مصر، وبالمقابل تتيح بريطانيا لفرنسا أن تتمركز في المغرب، شرط إتاحة الحرية للتجارة، وعدم تسليح وتقوية ضفة مضيق جبل طارق الافريقية.

واضطرت اسبانيا أن ترضى بالقليل بعد أن رفضت الكثير، إذ خشيت أن تفقد كل شيء في النهاية، وحصلت على سوتا، ومليلة، وقسم كبير من الريف، واتفق على أن تبقى طنجة مدينة دولية. ولم يكن للمغرب أن يحتج، فلم يكن يملك القوة للدفاع عن وجوده.

تدخل المانيا

اطمأن دولكاسي لموقف القوى الثلاث، التي لم تكن لها — حسب زعمه — مطامع في حوض المتوسط.

وكان هذا الخطأ في أصل أول «ازمة مغربية».



□ ممثلوا السلطات المحلية في فاس يستقبلون الجنرال موانيـي الذي انزل قواته في المدينة بحجة انقاذ الاوروبيين المحاصرين في المدينة.

ففي ١٩٠٢ سمح الحكم الفرنسي بتوظيف رؤوس أموال في المملكة المغربية. وكانت تلك خطوة أولى للتسرب ثم فرض الحماية. في كانون الثاني ١٩٠٥، أرسل وزير الخارجية بعثة إلى فاس بأمرة سان روني تاياندي، لتقترح على السلطان مساعدة مستشارين ماليين وحربيين لاعادة النظام إلى المملكة. ورغم أن السلطان عبدالعزيز اهتم بالاصلاحات والأعمال الضخمة المقترحة، فإنه لم يخدع عن الهدف، وان استقلال بلاده أصبح في اللعبة. ولما كان لا يستطيع أن يعمد إلى اللعبة البريطانية، فقد لجأ إلى العملاء الالمان الكثر في فاس: وقد أكدوا له أن القيصر يصر على أن يكون الحامي الطبيعي للبلدان الاسلامية التي تهددها أخطار التوسع الافريقي.

لم يكن لالمانيا مصالح اقتصادية حيوية تدافع عنها في المغرب. ولكنها لم يكن يرضيها ان تهمل عند طرح شؤون دولية خطيرة. وقرر غلاة الالمان انه لا بد أن تحصل المانيا على حصتها من المغرب عند تقسيمه. وقرر مستشار المانيا بولو، ووزير خارجيتها هولشتاين ضرورة إعادة اعتبار المانيا في السياسة الدولية.

كان أي تدخل الماني سيسيء إلى فرنسا، ويعرقل مساعيها، خاصة وان روسيا كانت مشغولة بحرب اليابان.

في هذه الأثناء كان غليوم الثاني على ظهر طراد في المتوسط قبالة طنجة، فقرر أن تكون محطته لفترة. وذلك في ٣١ اذار ١٩٠٥. وقد استقبله ابن عم السلطان، واخذت الصحافة الأوروبية أحاديث منه جاء في بعضها: «إني أزور سلطان المغرب، السيد المستقل. والمغرب الحر يجب أن يكون مفتوحا للمنافسة السلمية بين الأمم جميعا، دون رقابة أحد، من أي نوع كانت». هذه التصريحات وقعت وقوع الصاعقة على العاصمة الفرنسية. وظن دولكاسي أن المانيا «تبلف» وانه ليس بحاجة لرأيها ليفرض إرادته على السلطان، واعتقد ان غليوم الثاني وبولو لن يشنا حربا في المغرب. ولكن رئيس الوزراء لم يكن من رايه. وفي الوقت ذاته طلب السلطان عبدالعزيز عقد مؤتمر عالمي لدرس برنامج الاصلاح الذي اقترحته فرنسا. وخيل إليه أن يحفظ استقلال بلاده بتدويل قضية المغرب،


Six Pages — 5 Centimes

LA LIBRE PAROLE

La France aux Français

Directeur : EDOUARD DRUMONT

Ames de Vaincus

Le Conflit Franco-Allemand

VA-T-IL S'APLANIR ?

ECHOS

Billet du Matin

□ السبت ٩ تموز ١٩١١.

واللعب على خصومات الدول الكبرى.

تذمرت الأركان الفرنسية من إمكان خلق أزمة خطيرة في الوقت الذي كان فيه الحليف الروسي مشغولا بالشرق الأقصى.

كانت بريطانيا تسيطر بحريا. ولكن ما المساعدة التي يمكن أن تقدمها لفرنسا إذا ما غزيت. وقد نصح البرلمان بالتروي، خوف أن يقود التصلب إلى الانتحار.

مؤتمر الجزيرة

كان رئيس الوزراء، روفيي، قد اختار: فهو مستعد للتفاوض، والذهاب إلى حد الاقتراح بتعويض المانيا بمستعمرات، شرط السماح لفرنسا أن تكون حرة التصرف في شمال افريقيا. ولم يخف ذلك على رادولن سفير المانيا في فرنسا. فاتصل هذا بدولته وأفهمها العرض، وإمكان التخلي عن الوزير دولكاسي.

٣٠ أيار ١٩٠٥ أبلغ السفير الألماني رئيس الوزراء الفرنسي ان بلاده لا يسرها بقاء دولكاسي في الكي دورسي.

السادس من حزيران اقترحت المانيا عقد مؤتمر عالمي لدرس القضية المغربية. نصح دولكاسي الوزارة باستبعاد العرض. ولكنه وجد الجميع غير مكترث لرايه، وشعر انه وحيد فاضطر إلى الاستقالة. بعد ثلاثة اسابيع أعلن روفيي موافقته على الاقتراح الألماني. وعقد المؤتمر في ١٦ كانون الثاني ١٩٠٨، وضم اثنتي عشرة قوة بينها الولايات المتحدة. وكانت فرنسا تطمع في أن يعطيها المؤتمرون ورقة بيضاء للتدخل في المملكة الشريفية. وكان يمكن منح اسبانيا الورقة ذاتها، لولا أن المانيا كانت راغبة في إرسال بوليس دولي مكون من بلجيكا وسويسرا وهولندا، ليشرف على الوضع في المغرب.

ايدت انكلترا وروسيا فرنسا وفاجأ المندوب الايطالي فيسكونتي فينوستا بتأييد فرنسا. واتخذت الولايات المتحدة الموقف ذاته، وأعطت النمسا هنغاريا مندوبيها توجيات بالاعتدال. السابع من نيسان ١٩٠٦، انتهى المؤتمر بإعطاء فرنسا وإسبانيا حق مراقبة الموانىء المغربية، شرط إنشاء بنك مركزي تنشئه وتسهم فيه كل القوى. وهكذا تفوقت فرنسا في المؤتمر، ولم تنجح محاولة المانيا، ولكن الحماية رفضت، وعطل تدخل غليوم الثاني وبولو كل ما نباه دولكاسي. كما ترك المؤتمر لالمانيا حق التدخل في الشؤون المغربية، مما أزعج فرنسا، وغدا إزعاجها في المستقبل متوقعا دائما، وبالتالي اصبحت الأزمات متوقعة كذلك، وباتت أرض المغرب مسرحا لامكان التصادم في كل لحظة بين الفرنسيين والألمان.

استمرت الفوضى في المغرب. لم يكن عبدالعزيز قادرا على إخضاع بوحَماره. وفي الريف بسط ريزوني حمايته وقانونه. وفي مراكش كان مولاي حافظ، أخو السلطان، يتآمر على أخيه. وقامت تظاهرات عدائية للأوروبيين، بمذابح ضد الأوروبيين. في اذار ١٩٠٧ اغتيل الدكتور موشامب في مراكش حين سرت شائعات انه جاسوس. في ٣٠ تموز ذبح الجمهور في الدار البيضاء، عددا من العمال معظمهم فرنسي. على الحدود الشرقية، تقدم جيش فرنسي بقيادة

□ كاريكاتور بدا فيه الهر الفرنسي يسحب الكستنا من النار ليطعم الهر الالماني.

ليوتي، فاحتل أوجدة، وأضعف مقاومة بني سناسن.

وقد أخضع كل القسم الشرقي من المغرب خلال شهور. وفي القسم الغربي كان الوضع غامضا. فقد تغلغلت قبائل الشوايا في الدار البيضاء، حيث كانت الفوضى الشاملة سائدة. ولجأ الأوروبيون إلى الفن خوفا من أن يذبحوا. وطلب الممثلون القنصليون النجدة، فقصف طراد فرنسي المدينة، ونزل منه الجنود لحماية انسحاب الأجانب. في آب ١٩٠٧، أعاد الجنرال درود النظام والأمن إلى المدينة. وفي الوقت ذاته أعلن مولاي حافظ نفسه سلطانا على مراكش. وتفاقم الوضع، وسمح الحكم الفرنسي لرجال الجيش بالتدخل. وبين أيلول ١٩٠٧ وأيار ١٩٠٨ استطاع الجنرال داماد، بسط الأمن على مناطق السهول المغربية، ولكن الحرب الأهلية بين حافظ وعبدالعزيز استمرت. غير ان السلطان الشرعي، عبدالعزيز، رأى جيشه ينهار في اب ١٩٠٨، فالتجأ إلى طنجة. واعترفت الدول الكبرى بخلفه.

الأزمة المغربية الثانية

٢٥ أيلول ١٩٠٨، نجم حادث أثار الأزمة الفرنسية الألمانية الثانية في المغرب: فقد هرب ستة من الفرقة الأجنبية بينهم ثلاثة من الألمان، واوقفوا في الدار البيضاء وفي الوقت الذي كانوا فيه على وشك الابحار إلى أوروبا، وهم يحملون أوراقا رسمية المانية.

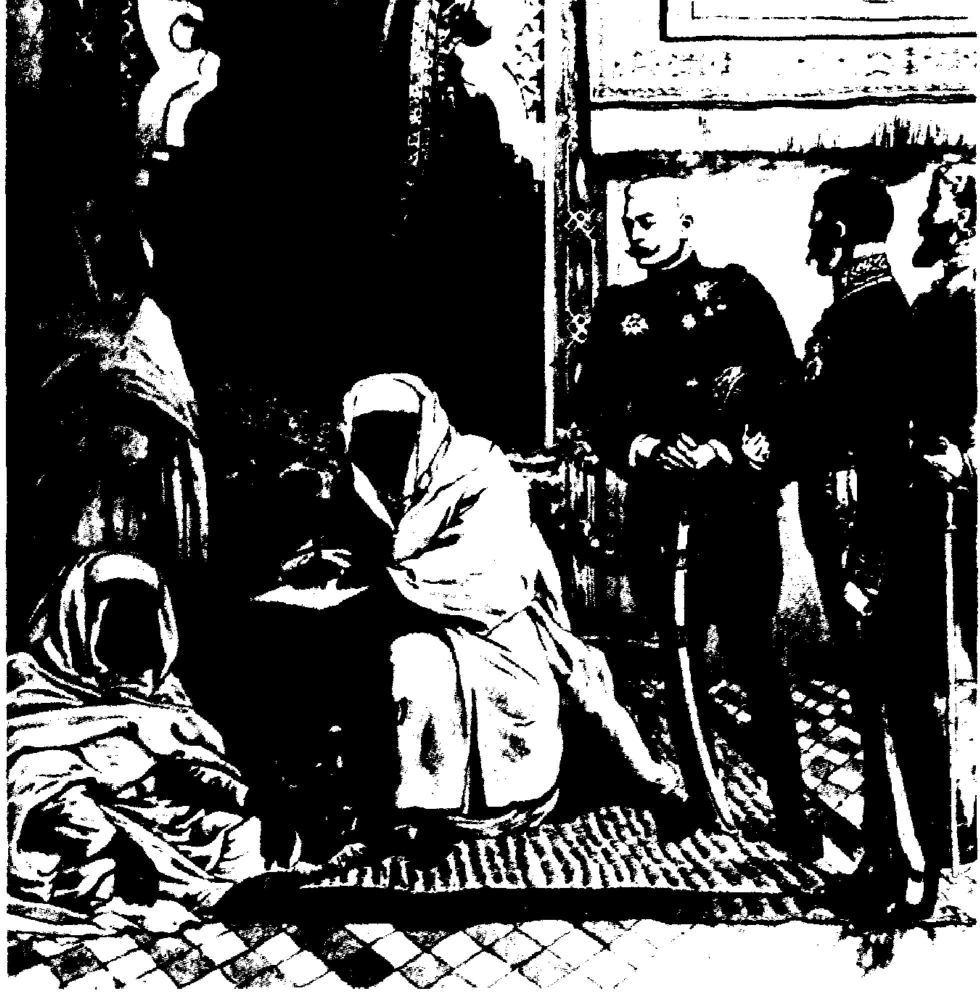
طالب بولو بإطلاق سراحهم الفوري. وأنذر بسحب سفيره من فرنسا. لم يتراجع كليمنصو. وتوصل الطرفان إلى حل وهو الرجوع إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي.

كانون الثاني ١٩٠٩ اقترحت المانيا مشروعا مشتركا. وجرت مفاوضات سريعة، واتفق الطرفان، ووقعت الاتفاقية في ٩ شباط. وفي الوقت ذاته أعلنت فرنسا تمسكها بشرعية الحكم الشريفي، وباستقلال المغرب. وأعلنت المانيا انها حرصا منها على مصالح «فرنسا السياسية الخاصة»، في المغرب تؤكد انها لا مطامح لها غير اقتصادية في المغرب.









□ مولاي حافظ يوقع التنازل عن العرش بحضور بعض اعوانه، وبإشراف الجنرال ليوتي وبعض اركانه. وقد طبق نظام الحماية بعد التنازل.

تسلم رئاسة أركان الجيش الفرنسي، يصارح رئيس الوزراء أن أمل فرنسا في أية معركة مع المانيا ضعيف. ولكن بريطانيا دعمت فرنسا. وألقى لويد جورج خطابا رنانا، وأعلن تحرك الأسطول البريطاني.

الأول من اب، تراجع كيدرلين عن بعض المطالب، وقرر القبول بقسم من الكونغو. وكان رئيس الوزارة الفرنسية كايو على خلاف مع وزير خارجيته، فأجرى مباحثات سرية مع الالمان (البارون فون شون) تطاوحت المفاوضات. في سبتمبر سحب الألمان بعض رؤوس أموالهم من المغرب، مما أزعج أصحاب رؤوس الأموال، فطالبوا بالتهادن.

١١ تشرين الأول وقع الاتفاق بالحروف الأولى ونص على: الحفاظ على المصالح الاقتصادية الألمانية في المغرب. كل ما تحتاج إليه الخطوط الحديدية. مد خط طنجة ــ فاس. بالمقابل لا «تعترض» المانيا فرنسا في عملها في المغرب.

اتفاق مرفوض

وقع الاتفاق نهائيا في ٤ تشرين الثاني ١٩١١. وأعطت فرنسا المانيا جزءا هاما من أرض الكونغو. وحصلت على ممر قرب تشاد. ولكن الاتفاق لم يرض الالمان ولا الفرنسيين. فقد قالت الدبلوماسية الالمانية: إن المانيا لم تنل من الاتفاقية إلا أراضي مستنقعية، وذباب تسي ــ تسي. ولام رجال الأعمال الفرنسيون كايو لسببين: الأول انه أجرى محادثات سرية مع الالمان؛ والثاني انه أعطى جزءا من الكونغو، وهي «أرض فرنسية»، لا يجوز التفريط بها. وكثرت الانتقادات حتى سقطت حكومته في ١٣ كانون الثاني ١٩١٢، وشكل بوانكاري الحكومة الجديدة.

٣٠ اذار ١٩١٢ حققوا في المغرب نظاما للحماية شبيها بالنظام في تونس. ●

فن الحفر على الخشب

قسم التوثيق والأبحاث



□ «المزين البغدادي» ولسان حاله يقول: «انا الشيخ الصامت، وليس لعلمي ومعرفتي حدود.. قرات الكتب ودرستها، ومارست الأمور وعرفتها، وحفظت العلوم واتقنتها، وتعلمت الصنعة واحكمتها، وانا قليل الفضول، ولاجل هذا ادعى بالصامت الرزين».

«الحفر لفيزي»

لم يحظ سفر عربي باهتمام المستشرقين ككتاب «ألف ليلة وليلة»، فهو من اكثر المؤلفات رواجا وأوسعها انتشارا وابلغها أثرا في نفوس الناس. حكاياته تحلق بالقارىء في أجواء الخيال وتفيض بروحانية الشرق وجماله، فهي تتناول اخبار الانس والجن، وأخبار الوحوش الكواسر وأخبار القرى والمدائن، وأخبار الكنوز المرصودة والجواهر الفريدة، كتاب ألف ليلة وليلة عالم صاخب، نابض بالحركة مشرع بالحكمة. حكاياته غنية بألوانها وموسيقاها فكانت مصدر إلهام لكثير من الفنانين والرسامين والموسيقيين. وقد صدرت منذ ما يزيد على المائة سنة ترجمات عديدة لهذا المؤلف ازدانت بالرسوم الفاخرة التي تصور أحداث لياليه أدق تصوير، فكانت بمثابة نافذة يطل منها الغرب على الشرق.



□ يمتاز كتاب ألف ليلة وليلة بتلك الطريقة الفذة في سرد الحكايات التي يأخذ بعضها في رقاب بعض، ومنها حكاية «القلندري الثاني الذي كان يعمل حطابا لكسب قوته اليومي». «الحفر لتوماس وليامز».

عندما كان «ريتشارد بيرتون» عاكفا على ترجمته لكتاب «ألف ليلة وليلة»، التي حظيت بشهرة واسعة، لم يفته أن يضع تعليقا قصيرا عن النيل من ترجمة سبقه إليها «وليام ادوارد لين». ويقول «بيرتون» في تعليقه على ترجمة «لين» التي ظهرت في عام ١٨٦١ أنها لم تلاق ما لاقته من نجاح إلا بفضل ما تزدان به من نقوش قام بتصميمها فنان يدعى «وليام هارفي». ومع ما في تعليق «بيرتون» من تحامل ظاهر على منافسه المستشرق «لين»، إلا أنه يلقي أضواء على فن الحفر على الخشب الذي اشتهر به «وليام هارفي» والذي استوحاه من الليالي العربية التي اتخذها مادة يزين بها رسومه ونقوشه. فتصاميمه تشمل فن الزخرفة العربي بجاذبيته وطرافته، والكتابات الكوفية بجمالها وغرابتها. وقد ازدان مطلع كل فصل من فصول مجلداته الثلاثة بالزخارف الراسية والنقوش الصغيرة التي تصور بإيجاز أحداثه ووقائعه. وتشهد الرسوم المنقولة عن تصاميم حفرها «هارفي» على الخشب على ما بلغه هذا الفن من رقي ورفعة باعتباره من أصعب ألوان الفنون قاطبة وأكثرها دقة وأجملها تعبيرا.

وفن الحفر على الخشب ليس حديث عهد، بل يرجع تاريخه إلى زمن المصريين القدماء. فهم كانوا يحفرون الحروف الهيروغليفية على قوالب من الآجر ثم يكبسون القوالب على قطع من الطين. ثم جاء الصينيون واستعملوا الحفر على الخشب لطبع الرسوم والنقوش المختلفة على القماش. وبعد عدة قرون استعمل الرومان الطريقة نفسها لطباعة الحروف الأبجدية والأرقام.

وكان الحرفيون أبان العصور القديمة يعمدون إلى قوالب من الخشب ليحفروا على سطوحها رسوما أو أشكالا أو خطوطا بارزة أو عميقة بحبيبات بلورية صغيرة قاسية، ثم يقطعون الزوائد الخشبية، لتظهر عند طبعها على شكل خطوط سوداء. وكان بالامكان أيضا تحبير تلك



□ «السندباد البحري، وقد تحطمت سفينته في السفرة الخامسة يرى وهو يساعد عجوزا وقد حمله لينقله إلى الجانب الثاني من الساقية، وما درى انه قد حمل «مارد البحر» على كتفيه الذي سرعان ما لف ساقيه حول عنق السندباد محاولا خنقه فمادت به الارض واسودت الدنيا في وجهه ووقع على الارض مغشيا عليه». «الحفر لتوماس وليامز».

النقوش وطبع الرسوم الايضاحية التي تزخر بها الكتب. ومع مرور الزمن حظيت هذه الطريقة برواج كبير وأصبحت تعد الطريقة المثلى، وبالتالي مهدت الطريق أمام طباعة الكتب على نطاق واسع.. وهكذا تقدمت صناعة الحروف المنفصلة.

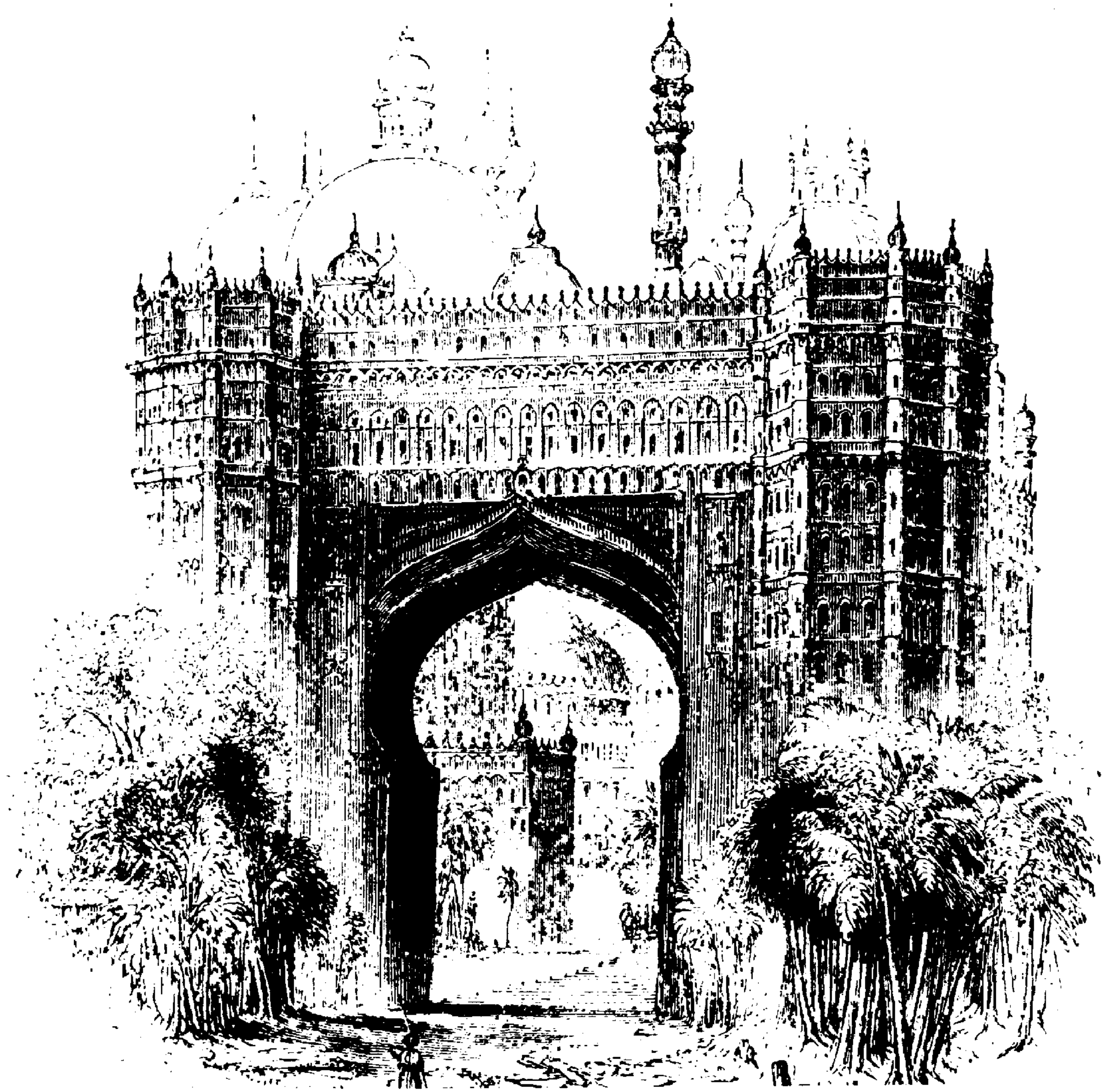
وفي أوائل القرن السادس عشر أدخل «ألبرت دورر» تحسينات جمة على هذا الفن حتى وصل به إلى درجة عالية من الرفعة والرقي. إلا أن استعمال المعدن وخاصة القصدير بدلا من الخشب في هذا المضمار أدى إلى التقليل تدريجيا من انتشار طريقة الحفر على الخشب، وهكذا

□ «حياة الأجيال السابقة هي خير درس للأجيال القادمة». هكذا قدم وليام لين ترجمته لكتاب ألف ليلةوليلة، واتخذ من قصة «حسن الصائغ البصري» دليلاً على ذلك، حين اقلع بمركبه من ميناء البصرة، الدائب الحركة، فألقت به الأمواج إلى جزر «واق الواق». «الحفر لويمبر».



تضاءل استعمال الخشب في هذا الفن تضاؤلا كبيرا حتى أصبح فن الحفر على الخشب في بداية القرن الثامن عشر من الفنون الصائرة إلى الزوال.

ومع مولد الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا في أواسط القرن الثامن عشر، ظهرت هنالك أدوات جديدة مكنت رجال الصناعة من تطوير أسلوب جديد في فن الحفر على الخشب وهو أسلوب يختلف اختلافا بينا عن الأسلوب التقليدي القديم، فبدلا من قطع الزوائد الخشبية حتى تظهر الخطوط السوداء عند الطبع، عمدوا إلى حفر أخاديد في الخشب على شكل (٧) تظهر عليها اليوم «الحفر على الخشب»، ومع أن هذه الطريقة لا تضاهي طريقة الحفر على المعدن بوضوح معالمها وجلاء خطوطها، إلا أن تكاليف الحفر على المعدن الباهظة بسبب طبع كل لوحة معدنية على حدة، من جهة، والتحسينات المستمرة لطريقة الحفر على الخشب من جهة

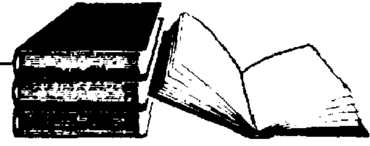


□ «اكتشاف ارم ذات العماد» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي يقال ان حصى شوارعها كان من الجواهر النادرة وغبارها من المسك النفيس. ومن غريب الصدف ان يعثر على ذلك الفردوس الاسطوري «عبدالله الجمال» بينما كان يفتش عن جمله الضائع في اليمن.

«الحفر لويمبر»

أخرى، أتاحت الفرصة لهذا الفن أن يظهر من جديد بعد أن كاد أن يتلاشى ويندثر. وبظهور الفنان الاسكتلندي «توماس بويك» (١٧٥٣ ـ ١٨٢٨) خطا هذا الفن خطوات واسعة إلى الأمام، حتى تفوق على فن الحفر على المعدن. ولم يقتصر عمل هذا الفنان على إنتاج الرسوم الفنية الممتازة، بل قام أيضا بتعليم هذا الفن إلى عدد كبير من التلاميذ البارزين، أمثال «وليام هارفي». وقد بلغت تلك النقوش التي صممها «هارفي» حدا من الجمال، بحيث أصبحت تعتبر من أروع الأمثلة لفن الحفر على الخشب تظهر بين دفتي كتاب. فهي رسوم جميلة الزخرفة مترفة إلى أقصى الحدود، وقد بلغت من الدقة في تصوير حكايات الف ليلة وليلة حدا جعل كثيرا من الفنانين ينقلون عنها «تابلوهات» محفورة على الخشب.

●





الصّورَة التَقليديّة للمجتمع المَدينيّ

د. عمر عبد السلام تدمري



صدر مؤخرا عن معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية ـ الفرع الثالث ـ (طرابلس) كتاب جديد للدكتور خالد زيادة، الأستاذ في المعهد المذكور، بعنوان «الصورة التقليدية للمجتمع المديني»، وهو يتناول: «قراءة منهجية في سجلات محكمة طرابلس الشرعية، في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر».

وبإصدار هذا الكتاب، يكون الدكتور زيادة قد فتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين والمهتمين بدراسة الوثائق العثمانية، لتنال سجلات محكمة طرابلس ما تستحقه من العناية والاهتمام من أساتذة الجامعات لدراسة كثير من النواحي: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتجارية، والدينية، والعمرانية، وغير ذلك من مجالات البحث الواسعة التي توفرها بمجلداتها الضخمة.

فقد مر الوقت الكافي الذي يجعل من الدولة العثمانية، والفكرة العثمانية جزءا من تاريخ مضى، إذ لم تعد العثمانية واقعا قائما كما كانت في بداية القرن الحالي. والجيل الراهن من الباحثين والمؤرخين لم يعاصر الفترة العثمانية، وبالتالي ليست لديه أية أفكار خاصة عن مرحلة أصبحت، بحق، من التاريخ الماضي. لذلك فإن العودة إلى دراسة المرحلة العثمانية والاعتماد على وثائق تنتمي إلى القرون (١٧، ١٨، ١٩) صارت من نصيب البحث الأكاديمي، ولا تحمل اليوم أية مضامين أيديولوجية بذاتها، لكن الأمر لا يتعلق بكتابة تاريخ جامعي مجرد، فإن كل شيء يدعو اليوم إلى البحث عن جذور مشاكلنا في التاريخ القريب، ويمكن للأكاديميين أن يقدموا جهودا مخلصة في هذا المجال.

إنها دعوة مخلصة يوجهها الدكتور زيادة إلى المتخصصين والباحثين لسبر أغوار التاريخ العثماني، وإبراز الحقائق دون تغليف بوجهات نظر مسبقة، فسجلات المحاكم الشرعية تعرض الوقائع المجردة كما هي في الواقع دون خلفيات، وقد تأكد لدينا بعد التمحيص والبحث أن سجلات محكمة طرابلس الشرعية هي الأوفر عددا، والأقدم عهدا بالنسبة لمثيلاتها في لبنان كله.

وقد وضع الدكتور زيادة مدخلا منهجيا لدراسته في الفصل الأول من الكتاب، تناول فيه الوثائق وأهميتها وأنواع القضايا التي تشتمل عليها، مع إحصاء شبه متكامل للسجلات، ويؤرخ، بإيجاز، ولكن بعمق وشمولية، لطرابلس

□ **د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الاسلامي، الجامعة اللبنانية، فروع طرابلس.**

العثمانية، فيربط بين دور المدينة الرائد في الميدان السياسي والحضاري، في تاريخها القديم والوسيط، مع تواصل هذا الدور في بدايات العصر العثماني، إلى أن يطرح السؤال المحدد: «لماذا فقدت ولاية طرابلس استقلالها في نفس الوقت الذي كانت الولايات الأخرى تصلب نواتها المدينية التي ستكون قواعد دول المستقبل؟».

لا شك في أن سياسة الأمير فخر الدين المعني، (السياسية) نحو بني سيفا أمراء طرابلس وعكار، و (الاقتصادية) نحو طرابلس، وإن بشكل غير مباشر، هي التي تسببت في تدهور مكانة طرابلس ودورها القيادي في «ساحل الشام» هذا إلى جانب عوامل أخرى لا يمكن أن تفصل عن بعضها. فقد كانت طرابلس حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر المرفأ الرئيس على ساحل الشام، وكانت لا تزال تحتفظ بمجالها الإداري والسياسي من شمال اللاذقية حتى جنوب جونية، إلا أن هذا الامتداد الجغرافي كان يضم تنوعا مذهبيا ودينيا فريدا، من العلويين، والموارنة، مع أقلية أرثوذكسية مدينية وريفية. وطرابلس بالاضافة إلى كونها موقعا تجاريا يتحكم بتجارة دمشق وحلب الخارجية، فقد كانت مدينة زراعية تستند إلى وفرة إنتاجية تخدم دورها التجاري ايضا، كما أنها لم تكن مركزا مدينيا في محيط ريفي، بل شكلت مع حماه وحمص مثلثا مدينيا نشطا على المستوى التجاري والصناعي. وبالنتيجة، فإن الأسس القوية التي يمكن لطرابلس أن تؤسس عليها استقلالها، هي ذاتها العناصر التي أفقدتها استقلالها النهائي.

وفي الحديث عن «عثمانية طرابلس» لحظ الدكتور زيادة الازدواج الواضح بين لغة السجلات، في: النص والمضمون. فتدهور طرابلس الاقتصادي منع قيام نواة مدينية صلبة تسعى إلى استقلالها الذاتي، فقد سلمت النخب المحلية ــ العلماء بوجه خاص ــ بارتباطها بالدولة. وهذا الارتباط حفظ تقاليد ثقافية ــ دينية ــ اجتماعية، انعكست في لغة النص. لكن هذا الارتباط لا يتطابق تماما مع واقع عيني يتمثل بتطورات البنية الاجتماعية، عجز الخطاب عن ملاحظتها، فهو يواصل المفهوم التقليدي للقانون والسلطة، بينما يعكس المضمون المعطيات المستجدة اقتصاديا وديموقراطيا. فالواقعة الواحدة يمكنها أن تعكس الوجهين معا في وقت واحد. ولذا يتطلب الأمر وضع خط فاصل بين سلطة جهاز الحكم، وبين سلطة الخطاب من حيث هو انعكاس لذهنية، أيديولوجية تملك سلطة مستقلة نسبيا عن الواقع، عنوانها «الكتاب الشرعي والخطاب المرعي» كما جاء في الفصل الثاني من الكتاب، حيث حصل تطور ملحوظ في القرن الثامن عشر، حين أصبحت لغة القضايا والوثائق المسجلة تفصح عن تمييز بين نوعين من النصوص ونوعين من الصلاحيات، فتحولت جميع القضايا تقريبا، التي هي من اختصاص القاضي وتقع تحت نظره إلى اللغة العربية، فأصبحت الالتزامات تسجل بالعربية، وكذلك إقرارات الأصناف، وكذلك الوقفيات وقضايا العتق بالاضافة إلى تنصيب الموظفين في وظائفهم، بينما احتفظت الفرمانات الصادرة في استامبول والبيورلديات الصادرة عن الوالي بلغتها التركية. وقد حمل هذا التمييز «اللغوي» فصلا بين نوعين من الاختصاص، وشكلين من السلطة والرقابة. وهذا التمييز لا تفسير له، رغم كون بعض الولاة كانوا من العرب، وخصوصا من آل العظم الدمشقيين. فحتى هؤلاء احتفظوا بالتقليد المتبع في إصدار المراسيم غالبا بالتركية.

إن من أطلع على سجلات محكمة طرابلس وتصفح وثائقها التي تعد بالآلاف، لا يسعه إلا أن يبدي إعجابه بالطريقة التي استخدمها الدكتور خالد زيادة في تركيزه على كثير من النصوص الهامة المتنوعة، والتي افرد لكل منها أو لبعضها عناوين وفقرات خاصة، فوردت ضمن السياق مع التحليل والدراسة والعرض المشوق، وقد استخدم عناوين فصول الكتاب بذكاء حيث اختار المصطلحات والتعبيرات الواردة في نصوص السجلات للدلالة على المضمون، فمن «الكتاب الشرعي والخطاب المرعي» إلى «الدستور المعظم» وصولا إلى «المدينة المحمية»، وتحت هذه العناوين للفصول، تندرج العناوين الفرعية المفصلة لمحتويات الدراسة، حيث بحث (للوالي) الذي يقف على راس جهاز الحكومة في ولايته، و (للحكومة) بجهازها الاداري وما تختص به من شؤون مالية وعسكرية، وما تضمه من موظفين:

كالمحاسبجي، والتذكرجي، والروزنامجي، والجبه خنجي، والجوقه دار، والقبوجي باشي، ووكيل الحرج، يجتمعون في سراي طرابلس «دار السعادة»، وهي تسمية ترجع إلى عصر المماليك.
اما الجهاز العسكري فيشتمل على قائد الانكشارية ـ آنما الينكجرية ـ ومحافظ قلعة طرابلس «الدزدار»، وضابط الراجلين (الرجالة) المستحفظين بالقلعة، والأبراج الحربية المنتشرة على ساحل المدينة الشمالي، والتي ورثها العثمانيون عن المماليك، فضلا عن «الصوباشي» و «العساس باشي» اللذين يقومان بمهمة حفظ الأمن في المدينة، في النهار والليل، يعاونهما مساعدون في مناطق الولاية خارج المدينة، مثل كاتب الناحية، وجابي الميري، وتابعه، في طرطوس، وعكار، والكورة، والظنية (الضنية حاليا)، والهرمل، والشعرا (نواحي النبك)، والزاوية، وصافيتا، وبشري، والبترون، وجبيل.
واختص الفصل الرابع بـ «الحاكم الشرعي» الذي يأتي في مرتبة تالية للوالي من حيث السلطة، ولكنه يتمتع بسلطات لا حصر لها بالمقارنة مع «قاضي» المحكمة في عصرنا، وهذا التعدد في المهمات لا يمكن الوقوف على شموليته إلا بدراسة السجلات والوثائق واحدا بعد واحد، ووثيقة تلو وثيقة، وقضية أو دعوى إثر أخرى، فالحاكم الشرعي هو: قاضي الأحوال الشخصية، والقضايا المستعجلة، ومحكمة التجارة، والاستئناف، والجزاء، والجنايات، وديوان المظالم، وقاضي العسكر، وتوجيه الوظائف الدينية، وتثبيت أو عزل مشايخ الحرف، والاشراف على الأوقاف، وتعيين المتولين عليها... وهو صلة الوصل بين الوالي والأهالي فيما يختص بشؤونهم وإنفاذ أوامر الحكام السياسيين، وقد أحاطت الوثائق مجلس الحاكم الشرعي ومنصبه الخطير بما تستحقه من التقدير الرفيع، فصيغت النصوص بعبارات التفخيم والاجلال، واستهلت، غالبا: «بمجلس الشرع الشريف المعقود بديوان طرابلس الشام، أجله الله تعالى، لدى متوليه مولانا وسيدنا أعلم العلماء الأعلام، تاج الموالي العظام، والحبر البحر الهمام، الحاكم الشرعي...» و «أقضى قضاة المسلمين، أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المختص بمزيد عناية الملك المعين، مولانا طرابلوس شام قاضيسي زيد فضله...».
ثم تتابع عناوين الموضوعات، من «رجال الدين»، إلى «الأهالي» الأغنياء والفقراء، حتى «الأصناف»، أنواع الطوائف المهنية الحرفية التي كانت تشكل الحياة المدينية، مثل: الخبازين، الفرانين، البوابجية، العقادين، الحلاقين، الحمّاميّن، المعماريين، النجارين، الدباغين، الحمالين، التجار، الخياطين، الاسكافيين، القصابين، الحياك، الخضريين، الفاكهانيين، الحدادين، الطباخين، القزازين، القاوقجية (نوع من الطرابيش)، النطفجية، القوافين (الحلاقين)، العطارين، الأكمكجية، الباشجية، المومجية، النحاسين، الكوكجية، السمرجية، السراجين، النعالين، الطاوقجية، الزبراونجية، السبوقجية، البلانجية، الشعارين، الترزية، الحبالين، السرموجية، الياقزجية، الصياغين، الصباغين، البزازين، الصابونجية، اللبادين، الحمصانيين، الملاحين، الدلالين، البورغنجية، المبيضين، النهوبجية، النشارين، الشحادين، الوتارين، المشدية، السعاة، البلاسة، العرقجية، السمانين، السماكين، البياطرة.. وغيرهم.
ويدرس الدكتور زيادة تطور العمران في طرابلس من حيث الاتساع والانحسار، فيحصي المحلات أو الحارات التي كانت تتألف منها المدينة. ومنها ما تزال تحمل أسماءها القديمة حتى الآن، ومنها ما تغيرت أسماؤها، وهي: التبانة، ساحة عميرة، قبة النصر، اليعقوبية، الجسرين، باب الجديد، التربيعة، حجّاري النصارى، حجّاري المسلمين، سويقة النوري، القنواتي، آق طرق، زقاق الحُمُّص، سويقة الخيل، مسجد الخشب، المزابل، الشيخ فضل الله، العينات، الصباغة، الرمانة، آلاي كوز، الناعورة، اليهود، القواسير، عديمي المسلمين، عديمي النصارى. ثم يلحق بآخر الكتاب خريطة تبين مواقع هذه المحلات.
والكتاب دراسة جادة غزيرة المادة العلمية، تعتبر ممهدة لفهم تاريخ طرابلس العثماني، اجتماعيا، واقتصاديا، ودينيا، وعمرانيا، وهو يستحق التقدير. ●

في يوم القادسية*



كان ابو محجن الثقفي[1] من المعاقرين للخمر، المحدودين في شربها، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد مرارا، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه حرسيا[2]، فهرب منه ولحق بسعد بن ابي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حرب القادسية.

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحبسه، فحبسه في القصر، وتطلع ابو محجن إلى الحرب، فرآها مشتعلة، فذهب إلى سلمى بنت ابي حفص — زوج سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعبرينني البلقاء[3]؛ فللّه علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي؛ فقالت: وما انا وذاك؟ فرجع يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حَزَناً ان تَرْدِيَ الخيلُ بالقَنَا
وأُتْرَكَ مشدوداً عليَّ وثاقِيا
إذا قمتُ عنَّاني الحديد وغُلِّقَتْ
مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المُنَادِيا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخْوَةٍ
فقد تركوني واحداً لا آخا لِيَا
وقد شفَّ جسمي انني كلَّ شارقٍ[4]
أُعالج كَبْلاً[5] مُصْمتاً قَدْ بَرَانِيا
فَلِلّهِ دَرِّي يوم أُتْرَكُ مُوثقاً
وتَذْهَلُ عني اسرَتي ورِجالِيَا!
حَبِيساً عن الحرب العَوَانِ وقد بَدَتْ
وإعمالُ غيري يومَ ذاكَ العَوَالِيَا
وَلِلّهِ عهدٌ لا اخيسُ[6] بعهدِهِ
لئن فُرِجت ألَّا ازورَ الحَوَانِيَا[7]

فقالت له سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، وأطلقته.

فاقتاد أبو محجن الفرس، واخرجها ثم ركبها، ودب عليها، وفي ذلك اليوم أظهر من شجاعته عجبا. ولما تحاجز أهل العسكرين اقبل ابو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، واعاد رجليه في القيد، وقال:

لقد عَلِمَتْ ثقيفُ غيرَ فخرٍ
بأنّا نحنُ اكرمُهُمْ سيوفَا
واكثرُهم دروعاً سابغات
واصبرُهم إذا كَرِهُوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فقد عرفوا بلائي
وإن أُطلق اجرِّعْهُم حُتُوفا

فقالت له سلمى: يا أبا محجن؛ في اي شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية؛ وأنا امرؤ شاعر، يدب الشعر على لساني، فينفثه احيانا، فحبسني لاني قلت:

إذا مِتّ فادفنّي إلى اصلِ كَرْمةٍ
تروِّي عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنَنِّي بالفَلاةِ[8] فإنني
اخافُ إذا ما مِتُّ الّا أذوقَها

فذهبت إلى سعد واخبرته خبر ابي محجن، فدعا به وأطلقه، وقال: إذهب فما انا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، فقال: والله لا أجبت لساني إلى قبيح ابدا.

(*) مهذب الأغاني: ٢ — ٤٨؛ الخزانة: ٣ — ٥٥٣؛ الأغاني: ١٣٨/٢٠؛ الكامل لابن الأثير: ٢ — ٢٣٢؛ المسعودي: ١ — ٤٢٣.

(١) ابو محجن إسمه وكنيته على المشهور، اسلم سنة ٩ هـ، وسمع من النبي، صلى الله عليه وسلم، وروى عنه، وكان جوادا كريما من الفرسان المشهورين في الجاهلية والاسلام مات سنة ٣٠ هـ

(٢) الحرسي: واحد حرس السلطان.

(٣) البلقاء: فرس سعد بن ابي وقاص.

(٤) أصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٥) الكبل: القيد.

(٦) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٧) الحانية: الدكان، وهو يريد امكنة بيع الخمر.

(٨) الفلاة: الأرض المهلكة.

فنون الأناضول

د. سامي زكي

تمثل الأناضول ــ الموطن الأصلي للأتراك ــ حلقة الوصل بين آسيا وأوروبا. ويذكرنا الكوبري العائم ذو الطابقين الذي يصل بين شطري اسطنبول اننا في نقطة اللقاء التاريخي بين عالمين وحضارتين. تعاقب على هذه القنطرة الأرضية في آسيا الصغرى الكثير من الحقب التاريخية المتميزة، والتقت فيها شعوب متعددة وحضارات مختلفة من بلاد الرافدين ومن فارس والهند والصين وكذلك من أوروبا. وانصهرت على ارضها عناصر من الحضارة الاغريقية والرومانية البيزنطية وحضارات الشرق. وفي العصور القريبة تولى الحكم فيها العثمانيون (نسبة إلى قبيلة من الشعب التركي سميت باسم مؤسسها عثمان) الذين كونوا امبراطورية كبيرة امتدت حدودها في القرن السادس عشر من هنغاريا وبحر الأدرياتيك إلى العراق ومصر...

استهدف معرض المجلس الأوروبي الثامن عشر أن يقدم هذا التاريخ الطويل من خلال الفنون التي أنتجتها هذه اللقاءات الحضارية المتعاقبة. وانتقيت لهذا الغرض ٥٠٠٠ قطعة

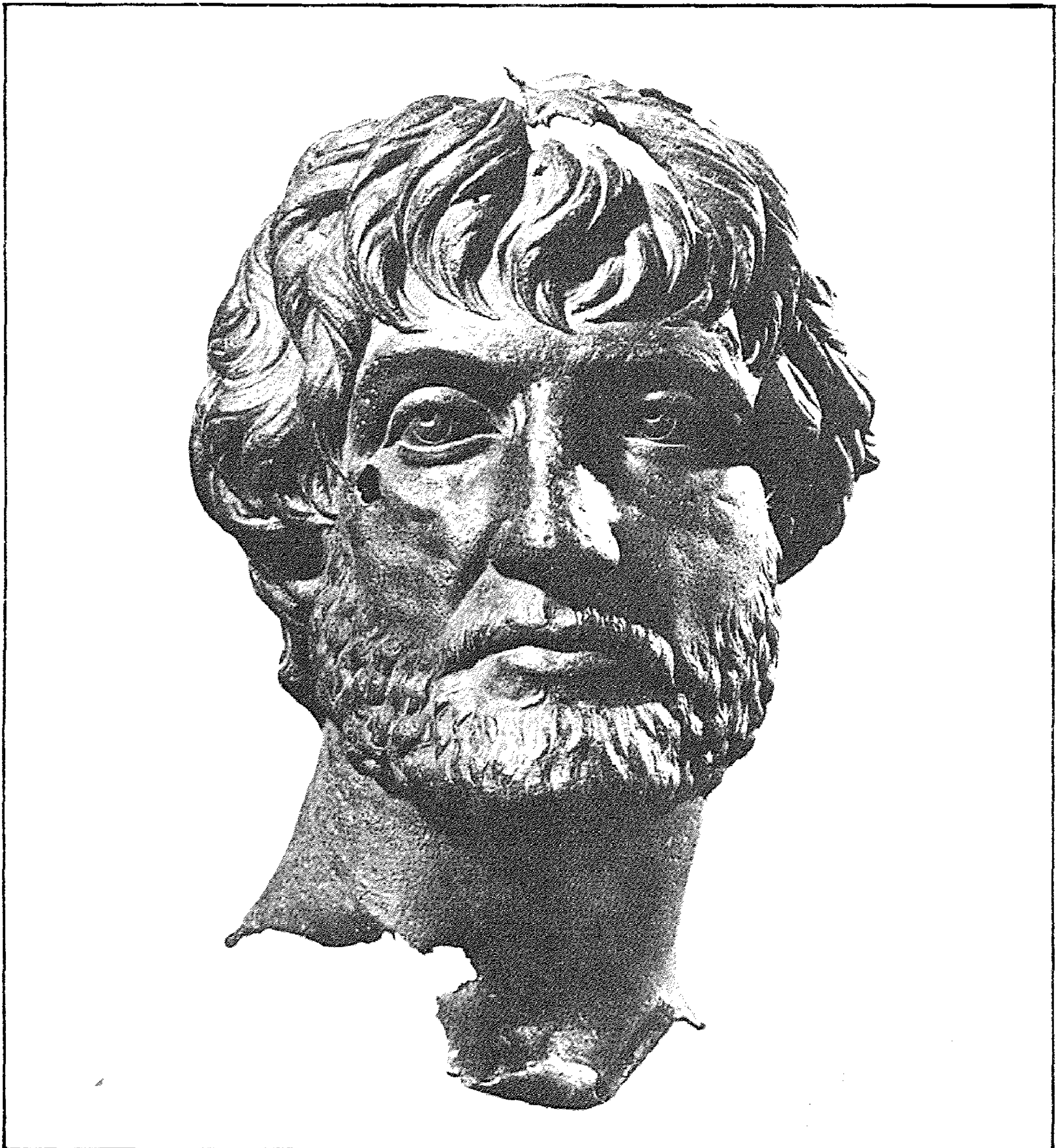
□ د. سامي زكي: باحث في العلوم الاجتماعية.



□ نقوش بارزة ــ سيدة تجلس على كرسي، وتلف ذراعيها حول رجل مريض، ارتفاع ٧٥ سم. نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد، متحف اللوفر.

عبر خمسة آلاف عام في معرض المجلس الأوروبي الثامن عشر في اسطنبول

□ رأس رجل من البرونز، القرن الثاني بعد الميلاد، متحف الحضارة، انقرة.





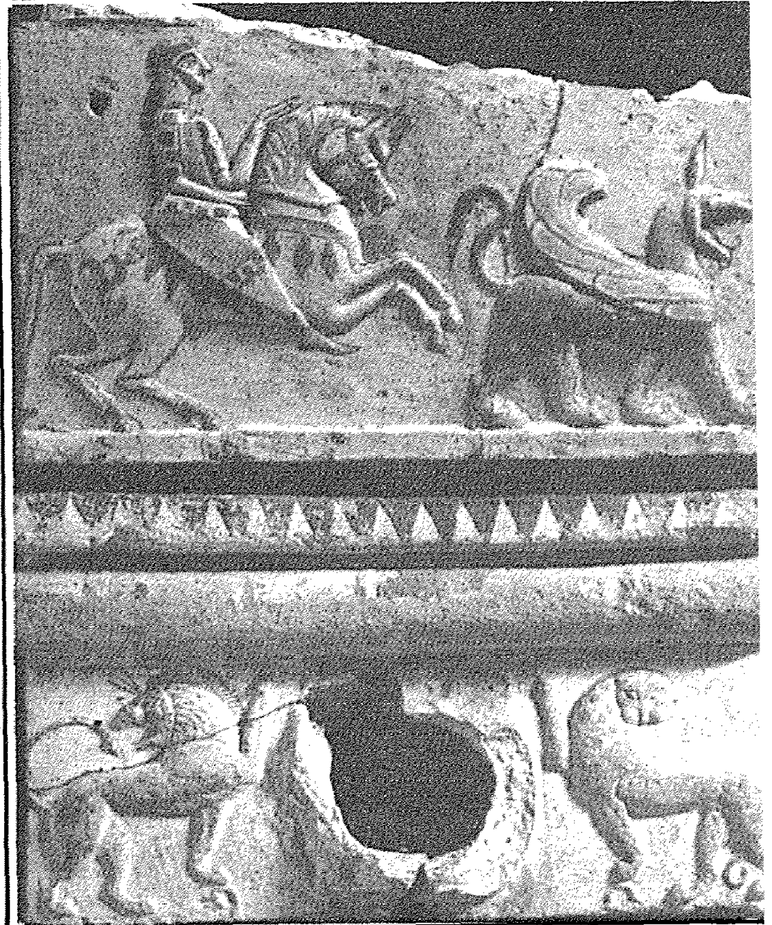
□ جزء من صحفة، سراميك أو خـزف. العصر السلجوقي. القرن الثالث عشر. قونيا



□ جزء من بلاطة، مثمنة الأضلاع. العصر السلجوقي. القرن الثالث عشر قونيا لم تنشر بعد. حفريات عام ١٩٦٥/١٩٦٧.

□ نقوش بارزة — متحف الآثار في اسطنبول. النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد.

□ علاقة للقدور. بداية العصر البرونزي. بداية العام الألف الثالث قبل الميلاد، متحف ملاتيا.







□ جزء من بلاطة. متحف قونيا. القرن الثالث عشر الميلادي. حفريات ١٩٦٥/١٩٦٧

فنيـة من نحو ٥٠ متحفـا تركيـا، واستعيرت مجموعات فنية أخرى من البلدان الأوروبيـة لاستكمال هذا العـرض. وانقسم المعرض إلى قسمين:

القسم الأول: من العصور الأولى حتى نهاية البيزنطية.

القسم الثاني: من حكم السلجوقيـين حتى نهاية الامبراطورية العثمانية.

على أنقاض السلاجقة في آسيا الصغرى قامت الدولة العثمانية كقوة كبرى في بـداية القـرن الخامس عشر، ومع صعود العثمانيين، واستيلاء «محمد الفاتح» على مدينة القسطنطينية، مركز الآثار البيزنطية، تكون طراز فني جمع في طياته تيارات مختلفة: تيار بيزنطي سلجوقي في العمائر وبناء المساجد، وتيار إيراني في الخزف والنسيج والتصوير، وتيار آخر وثيق الصلة بالغرب نجد آثاره في هندسة القصور والمساجد ذات القباب وزخارف الجدران والسقوف، ونجد كذلك بعض التأثيرات الأوروبية في نقوش الأقمشة المخملية. وعلى الرغم من مختلف التأثيرات فقد احتفظت جميع فنون هذه الحقبة بطابعها الاسلامي المميز الذي يلمسـه الناظر لأول وهلة. فجميـع هذه التأثيرات قد انصهرت في مفهوم الفن الاسلامي.

●



□ جرة بمثزاب، منتصف القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد. متحف الآثار. اسطنبول.

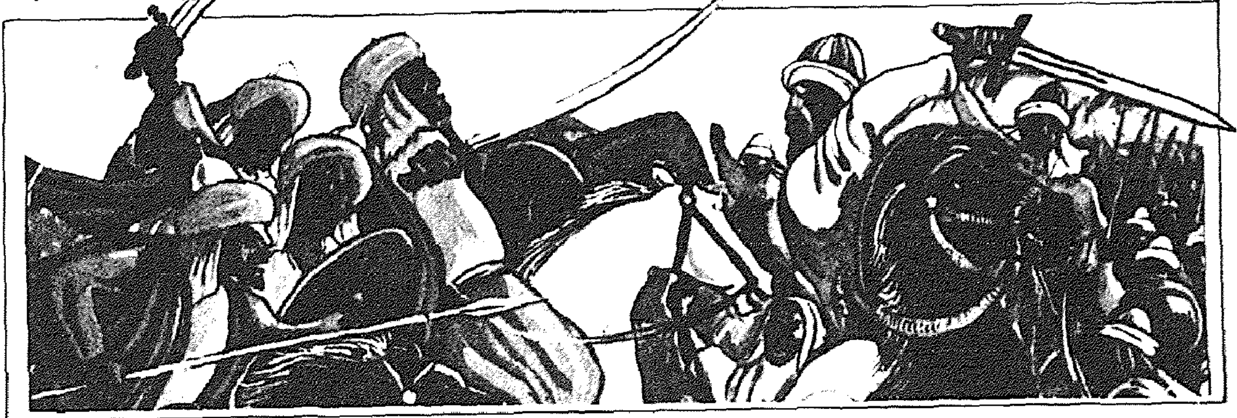


□ إبريق كبير باربعة اذان. القرن الثامن قبل الميلاد. متحف الأناضول. انقرة.



أبو عُبَيدة بن الجرّاح القرشيّ الفهريّ

فاتح بلاد الشَام - سُوريَا، لبْنان، الأردُن وَفلسْطين



أكرم تكريم لهذا القائد العربي الاسلامي قول الرسول العربي صلى الله عليه وسلم فيه: «هذا أمين هذه الأمة».

ولد أبو عبيدة بن الجراح سنة ٤٠ قبل الهجرة الموافقة لسنة ٥٨٤م. وتوفي سنة ١٨ هجرية الموافقة ٦٣٩ ميلادية في خلافة عمر بن الخطاب، بعد إصابته بالطاعون وهو بطريقه إلى القدس للصلاة في المسجد الأقصى حيث وافاه الأجل ودفن في بلده عمواس على بعد أميال خمسة من بيت المقدس.

كان هذا الرجل الأمين التقي من أوائل الذين دخلوا الاسلام وأبلوا بلاء حسنا في الجهاد في سبيله، فقد شهد معركة بدر وكان من الحماسة لدينه ورسوله ولقومه أن اضطر مرغما لقتل والده المشرك في هذه المعركة.

كذلك حارب مع الرسول في معركة أحد وثبت مع الرسول (صلعم) حين انهزم المسلمين وولوا الأدبار.

وبعثه الرسول (صلعم) في ٣٠٠ رجل فيهم عمر بن الخطاب إلى حي جهينة وهو موقع على البحر الأحمر في مهمة غاية في الصعوبة ونجحوا بها رغم كل شيء.

وكذلك شهد فتح مكة وكان في مقدمة موكب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان لدور أبو عبيدة في معركة اليرموك أثرا بالغا في هذا الانتصار الرائع للمسلمين وشهد له ثقاة علماء التاريخ بقوته ودوره وخططه التي برع بها وهو ما يسمى الآن التكتيك والاستراتيجية وكان أول من استخدم هذه الأساليب الحربية المتقدمة وكان لها بالغ الأثر في الانتصار في هذه المعركة الحاسمة.

كان أبو عبيدة بن الجراح من انجب تلامذة مدرسة الرسول القائد العظيم، إلى درجة أن الرسول (صلعم) كان يحبه ويعزه وكانت مكانته كبيرة في نفس رسول الله وواضح ذلك بقول الرسول (صلعم) لوفد من نجران ساله أن يرسل لهم من يرضاه ليحكم بينهم، فرد رسول الله (صلعم):

«سأبعث معكم رجلا أمينا حقا أمين» وبعث لهم أبو عبيدة بن الجراح. وكان الرسول (صلعم) يقول عنه «إن لكل أمة أمينا، وإن أميننا ايتها الامة أبو عبيدة بن الجراح».

وكان أبو عبيدة معروق الوجه حفيف اللحية، طويل القامة ناتيء الوجنات وكان يتمتع بمزايا غاية في الانسانية والرقة وقد انعكست هذه الصفات عليه كقائد عسكري، ونرى ذلك واضحا عندما طلب أهل بيت المقدس منه أن يصالحهم بحضور عمر بن الخطاب، وكان لهم ما أرادوا.

وكانت هذه ميزة ينفرد بها أبو عبيدة بشكل واضح وجلي.

وكان أبو عبيدة زاهدا في الدنيا وسلطانها ومناصبها حتى عندما أتوا إليه ليبايعوه كخليفة للرسول فقال لهم:

«أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة» قاصدا بذلك أبو بكر الصديق. إشارة للآية الكريمة «إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا». صدق الله العظيم.

وكان لا يكترث ولا يهتم بمتاع الدنيا من أموال وعقارات وتصرفاته خير دليل على ذلك.

وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى والاخلاص لعقيدته فكما أشرنا سابقا قتل أباه يوم بدر بعد أن حاد عنه وتجنبه، وعندما تألم لذلك الحادث نزلت الآية الكريمة فيه «ولا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا اباءهم رأوا ابناءهم أو إخوانهم، أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه» صدق الله العظيم.

وحاول عمر بن الخطاب إبعاده عن منطقة الوباء في بلاد الشام وكتب إليه يستدعيه لمشورة عاجلة فرفض ترك جنوده وأجاب عمر وكان قد عرف ما يقصده: «يا امير المؤمنين، قد عرفت حاجتك إلي، إني في جند المسلمين لا أجد نفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه فخلني عن عزيمتك».

ولم يشهد المسلمون فجيعة بعد الرسول وأبي بكر أشد وقعا عليهم وأكثر حزنا لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين. قال معاذ بن جبل يبكيه: «إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله اني رأيت من عباد الله قط أقل حقدا ولا أبر صدرا ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا انصح للعامة منه، فترحموا عليه».

وكانت سمعته كقائد فذ وحلمه الدافق ورفقه الواسع وسعة صدره وأمانته وصدقه وحبه للسلام قد سبقته إلى بلاد الشام وأهلها، أحبوا هذا الرجل القائد الفذ ويسروا مهمته وكان ذلك واضحا لأن أكثر المدن سلمت له بعد صلح وبذلك حقنت دماء المسلمين والعرب.

وكان أبو عبيدة قائدا عسكريا فذا يرابط مع جنوده دائما ويمكث معهم لا يفارقهم وتبع أوامر رؤساءه وكان من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خطوة يخطونها سويا. وكان بعيد النظر يدخل في حساباته أسوأ الاحتمالات ويسد كل الثغرات التي يمكن للعدو أن يتسرب منها.

وكان أبو عبيدة بن الجراح صحيح القرار غير متسرع في إصداره، ذا إرادة قوية نافذة ونفسية طيبة هادئة لا تتبدل في حالتي النصر والتراجع، وشخصيته قوية وله قابلية بدنية ممتازة، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه وله ماض ناصع مجيد.

وهكذا دخل أبو عبيدة بن الجراح التاريخ من أوسع الأبواب بمواقفه الجريئة وجهاده الدائم الصبور الذي أدى إلى فتح بلاد الشام — سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين — هذه المنطقة التي أمدت المسلمين والعرب بسيل جارف من المجاهدين بسيوفهم وبأقلامهم وفكرهم.

وكأني بأبي عبيدة ينادي من وراء الغيب متحسرا متأسفا عما جرى ويجري في هذه البلاد..؟!

فعسى أن يجود لنا التاريخ العربي ببطل له بعض هذه الميزات ليعيد تسطير التاريخ بشكل إنساني مترفع كما فعل أبو عبيدة... والأمل بالله كبير... لأن هذه الأمة ليست بعاقر.

فارس عينه

المراجع:

(١) القرآن الكريم.
(٢) قادة فتح بلاد الشام ومصر — للواء الركن، محمود شيت خطاب.



كتب وردتنا

□ من منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

— **صفحات من تاريخ جبل عامل**
دار الفارابي — الطبعة الأولى ١٩٧٩ .....

— **وكل الجهات الجنوب**
الطبعة الأولى، ١٩٧٩ ....

— **شهادات على حاشية الجنوب**
دار الفارابي — بيروت — الطبعة الأولى ١٩٨١ .... حبيب صادق

— **وجوه ثقافية من الجنوب (٢)**
بيروت — ١٩٨٤ ....

— **معاً من أجل الجنوب**
معاً من أجل لبنان
وقائع ومقررات «المؤتمر الثقافي النقابي الأول في لبنان من أجل الجنوب» الذي انعقد في بيروت ١٤/٩/١٩٧٩ ....

— **المقاومة الوطنية اللبنانية طريق التحرير والوحدة**
بيروت ١٩٨٤ ....

— **دراسات حول جنوب لبنان**
بيروت ١٩٨١ ....

— **من دفتر الذكريات الجنوبية**
دار الكتاب اللبناني — بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١ ....

— **من دفتر الذكريات الجنوبية (٢)**
دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٨٤ ....

— **الأبعاد السياسية لقضية الجنوب اللبناني**
بيروت ١٩٨١ ....

— **الدليل، معرض جنوب لبنان**
كتاب وشظية
بيروت ١٩٨١ .... تقديم وإشراف: حبيب صادق

— **في رحاب الخيام**
شعر الشيخ عبدالكريم صادق ١٨٩٠ — ١٩٧٢
دار الأقلام — بيروت ١٩٨٤ .... تحقيق وتقديم: حبيب صادق

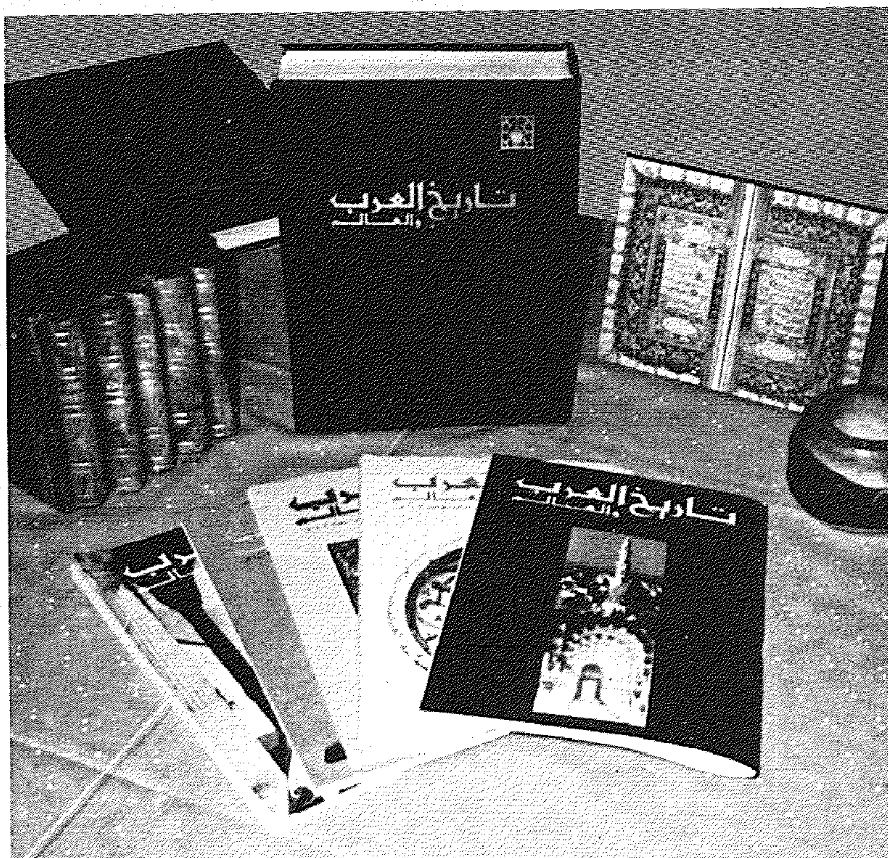
— **حُسْنُ العواقب (رواية)**
الهوى والوفاء (مسرحية)
بيروت، ١٩٨٤ .... تأليف: زينب فواز
تحقيق: فوزية فواز

احتفظ بمجلدات السنوات الخمس من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

تسعة مجلدات فخمة + اشتراك مجاني لعام كامل



٤٠٠ دولار أو ما يعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم الى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ______________________

العنوان: ______________________

المدينة: ______________________

الامضاء: ______________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

...سم الله الرحمن الرحيم   وما توفيقي الا با...

...جوامع المقالة الاولى من كتاب جالينوس في المعجونات وهي التي يذكر فيها ...

...سمه بنفسين يحيى النحوي الاسكندراني على حد الجوامع اخرجه لانه اسقط ما لا يحتاج اليه من الكتاب

...ع التي يحتاج اليها فصيرها اساسا وبنى عليها كتابه   ذكر اسما الاطبا الذين لقوا الدرياق واحد بعد ...

...ده كل واحد منهم على صاحبه ممن تقدمه ونقصانه عنه وهم تسعه



















